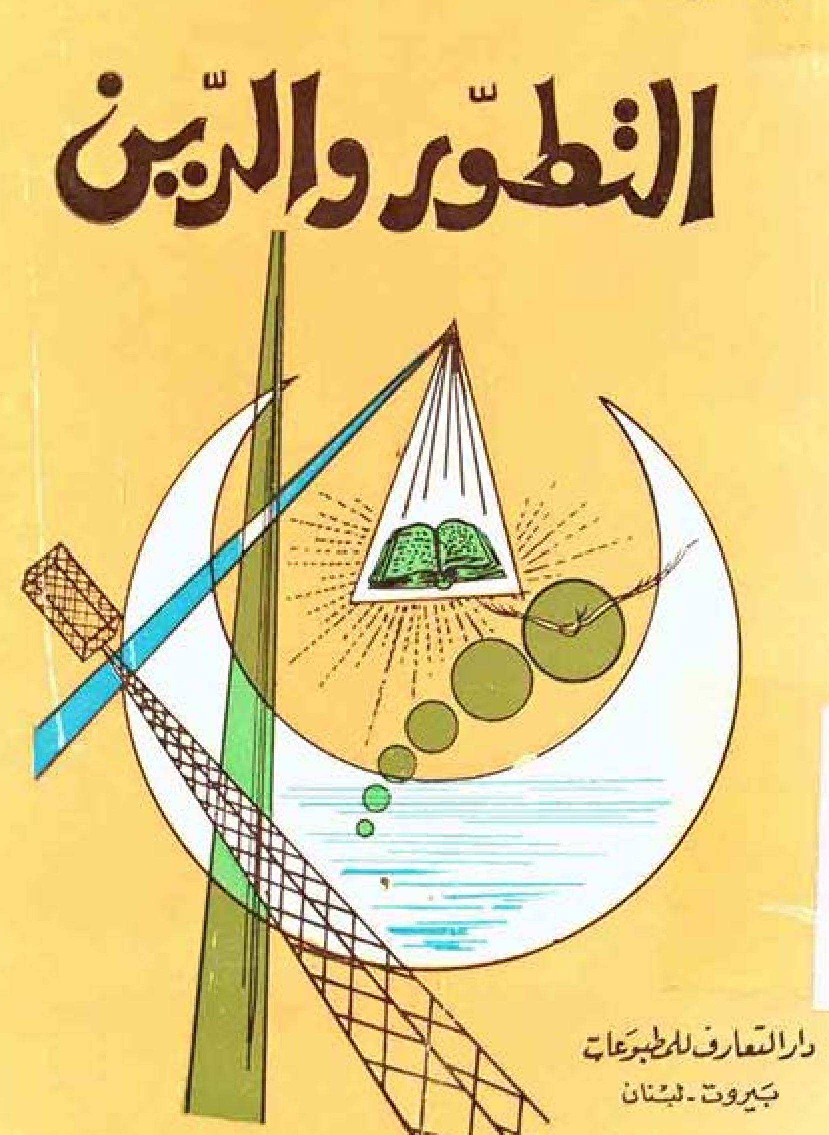
أحمد زكي تفاحة

التطوّر والدّين



دار التعارف للمطبوعات
بيروت - لبنان

التطور والدين

أحمد زكي تفاحه

التطور والدين



١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م

الطبعة الأولى

دار التعــارف للمطبوعات

بيروت - لبنان

شارع سورية - بناية درويش - الطابق الثالث

ص. ب. ٨٦٠١ تلفون ٢٤٧٢٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين وصحبه المنتجبين وبعد :

ان التقدم الصناعي في النهضة الحديثة ، ضاعف من اختلاط الأمم في افكارها ونظمها وتقاليدها وعاداتها ، كما ضاعف من معرفة لغات الامم الاخرى على اختلافها وتباين ما بينها .

والعالم الاسلامي يقع في وسط العالم ، كما يقع القلب في الجسد، في قارتي آسيا وافريقيا، مع ما فيه من كثرة السكان تزيد على ربع سكان العالم ، وما يتبوأه المسلمون من اكثر شواطيء البحر الابيض المتوسط ، واكثر من ثلثي شواطيء البحر الاسود ، وثلثي بحر قزوين ، وجميع شواطيء البحر الاحمر ، ويتسلط المسلمون على الممرات المائية الستة التي تربط البحار بعضها ببعض ، وتربط الغرب بالشرق ، قناة

السويس ، ومضيق جبل طارق ، ومضيق الدردنيل ومضيق البوسفور ، ومضيق باب المندب ، ومضيق هرمز والثروات المائية التي تمر في اراضي المسلمين ، ثلاثة منها من اهم انهار العالم ، النيل ، والفرات ودجلة ، عدا عن الانهار الأخرى ، والثروات النباتية والحيوانية المتوفرة لدى المسلمين، وبخاصة وحربه وسلمه ، ويمتلك المسلمون «٥٦» بالمئة من احتياطي على شواطيء البحار ، وضفاف الانهار بحكم توفر المياه لديهم ، والثروة المعدنية على اختلاف انواع المعادن واهمها البترول الذي يتحكم في صناعة العالم وتجارته ووسائل نقله القوى السياسية المستغلة في العالم غربه وشرقه .
البترول في العالم .

ومن ثم كانت رقعة العالم الاسلامي هدفا لسطو المغتصبين من اصحاب الصناعات ومصاصي دماء الشعوب من المستعمرين واذنابهم، وما تزال البلاد الاسلامية الهدف لصراع القوى السياسية المستغلة في العالم غربه وشرقه .

اضف الى موقع المسلمين الجغرافي والاستراتيجي وما فيه من ثروات اقتصادية عاملا، ثانيا دينهم الاسلامي الحنيف وما فيه من عقيدة وشريعة شاملة لكل شؤون الحياة الداعي لهم الى كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة يبعث في المستغلين القلق والخوف مما يقض مضاجع المستعمرين وعملائهم ، وهم يحسبون كل حساب لتمسك المسلمين باسلامهم العظيم وهو الباعث لهم على التماسك ، ومصدر قوة المسلمين ومتعتهم

القرآن الكريم دستور الاسلام الخالد .

فحاول المستعمرون وجميع المستغلين معهم التغلب على المسلمين والقضاء على الاسلام عن طريق الرصاص والبارود والمدفع عبر عصور طويلة كان أشدها الحروب الصليبية فباءت بالفشل ، ثم الحروب الاستعمارية من الشرق والغرب في العصر الحديث ، واحتلال بقاع كثيرة من بقاع المسلمين ، ولا يزال يرزح بعضها تحت حكم الاستعمار الشرقي والغربي في قارتي آسيا وافريقيا وفي غيرهما مما يتواجد فيه المسلمون ومع كل ضغوطهم وحروبهم وسيطرتهم وتشويشهم وتحريفهم للمفاهيم الاسلامية لم يستطيعوا ان يزيلوا المسلمين عن دينهم الاسلامي الحنيف، فأضافوا الى حروبهم بالرصاص والبارود والمدفع حرب المفاهيم وتشويه الحقائق وانقسام المسلمين في الرأي والمعتقد وعزلهم عن اسلامهم فكريا ، وتفرقهم احزابا واتخذوا لذلك أساليب عديدة .

وبفعل ذلك نشأ من ابناء المسلمين جيل معذب،لانه موزع بين الانتماء الى عقيدة موروثة يحرص على الانتماء اليها غير انه لا يعرف الطريق الى تجليتها وتوضيحها،أوالاقتناع بها في نفسه ، بين فلسفات فكرية وحزبية غريبة عنه لا تمت الى دينه بصلة ، وبين حكام نسوا كل شيء الا شهوة الحكم وغلبة السلطة ، وبين مذبذب ينعق مع كل ناعق .

ان هذا الجيل الحاضر من أبناء المسلمين اذا لم يمهد له

الطريق لفهم الاسلام واعداده لمواجهة التحديات التي توجـه اليه في كل حين،وتزعزع حياته ووجوده، سيسلم أمر نفسه ، لاسمح الله ، الى تبعية أجنبية خطـيرة خبيثة لا يدري مداها ولا يعلم منتهاها ، أو ينحدر في سلوكه الى مستوى ينسى فيه انسانيته وكرامته ، وينحدر الى حضيض الحيوان ، حيث لا يبقى له من ذاته الا جانبه الحيواني .

ولقد نشأ اختلاف الناس في الرأي عن اختلافهم في تحديد مفاهيم الاشياء ومدلول الكلمات والمصطلحات ، كما وانه نشأت المذاهب الدينية والفلسفية والسياسية وغيرها نتيجة الاختلاف في الرأي وتطبيقه .

ولكي نقف في دائرة الفكر الموضوعي منفصلا عن الميول الشخصية في موضوع التطور ، لا بـد من تحديد مفاهيـم الحقائق التاريخية مراعين بذلك اصولها ، ليكون تحديدها غير متداخل مع العواطف والرغبات الشخصية، وبذلك تكون اكثر سلامة وابعد عن الهوى، اذ نعلم من تاريخ الماضي كيف ان بعض الكلمات والمصطلحات التي تحـول مفهومها بفعل الرغبات الشخصية عن مدلولها التطبيقي التاريخي، قد لعبت في مجتمعنا الاسلامي في توجيهه وسياسته دورا خطـيرا أدت الى نتائج مختلفة ، أقلها الخصومة والفرقة وسوء الظن والتشفي بين الافراد والجماعات المسلمة .

ولكي يبعد البغض والكره عن بعض المفاهيم من جانب

وينفصل القبول والاستحسان عن البعض من جانب آخـر ، يجب ان تحد المفاهيم التي تستخدم في توجيــه المجتمـع الانساني .

ولذا قد حاولت في كتابي هذا أن اضع بين يدي القارىء المامة عن بعض المفاهيم التي وقع فيها اللبس والاشتباه على بعض الناس من ناشئة عصرنا بتوجيــه الدعايات المغرضة والمضللة التي تلبس الحق بالباطل لتبعدهم عن خالقهم وقيم دينهم ، قيم الحق والخير والجمال، والتي جاءت متجسدة في الاسلام روحاً وجسدا قلباً وقالبا .

آملا ان يعود هــذا الجيل المضلل من أبناء عصرنا الــى الصواب وان يواجه تحــدي الدعايات المضللة مــن قلــب الحقائق وتشويه المفاهيم بقلب مفتوح ملؤه الايمان والوعي.

كما وارجو الله سبحانه التوفيق وان أفي الغرض حقه ، عله يعرف الحق من جهله ، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به ، والله سبحانه ولي التوفيق والقبول .

آحمد زكي تفاحة
جماد الاولى ١٣٩٧ هجرية
نيسان ١٩٧٧ ميلاديــة

- التطور في اللغة .
- التطور والتقدمية .
- السلوك المهذب .
- التفكير الواقعي .
- الانسان المتطور التقدمي .

- الرجعية والجمود .
- الانسان العصري والتطوري .
- التطور والتقدم والرجعية والجمود .
- الروحية والمادية ...
- الحرية والكبت ...

- الخرافة والتقاليد .
- التطور والدين .
- التقدم الصناعي والاخلاقي .

التطور في اللغـة

هو الانتقال من مرحلة إلى مرحلة ، والتغيير من حال الـى حال ، قال تعالى :

« مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً . وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً »[1] .

أي خلقكم طورا نطفة ، وطورا علقة ، وطورا مضغة ، ثم عظاما ، ثم كسا العظام لحما ، ثم انشأه خلقا آخر ، نبت له الشعر ، وكملت له الصورة :

« فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ »[2] .

وقيل معناه : صبيانا ثم شبانا ثم شيوخا .

---

(1) سورة نوح آية (14ـ15) .
(2) سورة المومنون آية (15) .

التطور والتقدمية

يعني الاستمرار في الحركة في خط النمو الطبيعي للانسان الفرد ولمجتمعه الذي يعيش فيه .

والنمو الطبيعي للانسان هو السير في الخط الموصل الـى تكامل الاستعدادات الفطرية له ، ككائن يتحرك ويكر .

وتكامل الانسان في حركته ان يكون مستقيما فيها في غير اعوجاج .

وتكامل الانسان في تفكيره ان يكون حمه على الامور وتقديره لها صوابا لا وهما ولا خيالا ولا مكرا ولا خداعا .

فالانسان التقدمي المتطور هو الانسان المهذب في سلوكه والواقعي في حكمه والصادق في التعبير عنه .

السلوك المهذب للانسان

هو الاستقامة في السلوك والحـركة ، ولكـي تتحقـق الاستقامة تتطلب فكرا وارادة وتصميما او ايمانا .

واذا استقام في سلوكه وحركته كان الانسان المهذب الذي لا يصطدم مع نفسه ولا مع غيره .

ومن هنا كانت الاستقامة في سلوك الانسان في حركة هي امارة تطوره وتقدمه .

ومن هنا ايضا كانت الارادة وكان الايمان ميزة الانسان وخاصته دون الحيوان .

التفكير الواقعي

هو الذي قل فيه الخداع أو قل فيه الخطأ .

والانسان يخـدع في تفكيره أو يخطىء اذا انحرف في خط سير حركته ، اي اذا لم يستقم في حركته ككائن متحرك له ميزة الارادة والايمان ، فعند الانحراف في الحركة يتجـه تفكير الانسان الى تبرير الانحراف ، لا الـى تضييق دائـرة الخداع أو الخطأ في الحكم والتقدير . واذا اتجه التفكير الى تبرير الانحراف في السير اقترب ان يكون كائنـا متحركا منحرفا غير مستقيم في حركته ولا واقعيا في تفكيره .

الانسان المتطور التقدمي

يتضح من خلال المفاهيم الثلاثة المتقدمة : ان التطور والتقدمية ، هي الاستقامة التي تتوقف على الارادة والايمان، وهي الفكر الصحيح الذي سلم من الخداع والخطأ .

ومن هنا كان الانسان المتطور التقدمي هو الانسان المستقيم في سلوكه حركة وفكرا .

وتقوى الله سبحانه هي الاستقامة في السلوك حركة وفكرا في جادة الشرع ، والعلم الذي يرشد اليه الله سبحانه هو العلم القائم على صدق التقدير ، والحكم والذي انتفى فيه الخداع والخطأ .

«هذا في حق الانسان الفرد.اما المجتمع المتطور المتقدم» فهو المجتمع الذي يقل فيه الاحتكاك والتصادم بين افراده وجماعاته ، هو المجتمع الذي استقام فيه سلوك افراده ، وصح تفكيرهم وصدق تعبيرهم ، أو الذي ابتعد فيه الانحراف في خط السير ، كما ابتعد الخداع والخطأ في

التقدير والحكم ، اذ المجتمع الانساني هو تحقق عملي للاستعداد الفطري في الافراد ، وان كان مساويا لوجودهم كطاقة واستعداد بشري •

المجتمع المتقدم المتطور في التوجيه هو ما قلت فيه الجرائم بانواعها وقلت فيه الحراسة والامن ، وقلت فيه دور القضاء ، هو المجتمع الخلقي المهذب أو هو المجتمع الانساني الذي ساد فيه الاقرار بالواجب وسادت فيه الارادة والايمان وساد فيه الصدق والتعبير عن الحق •

الرجعية والجمود

عكس مفهوم التطور والتقدم ، الرجعية هي الميل في السير الى الوراء والعزوف عن متابعة الانسان في الحركة نحو اليقظة التي يتم عندها تكامل استعدادات الانسان الطبيعية.

والجمود هو الوقوف في الحركة عند مرحلة من مراحل تطور الانسان في كماله وتمام نمو طاقاته البشرية .

اذن فالانسان الرجعي هو الانسان المنتكس ، والانسان الجامد هو الواقف ، وكلاهما غير المستقيم في سلوكه ، أو ضعيف الارادة والايمان بحيث لا يستطيع ان يحكم أمر سير نفسه في خط الحركة المرسوم لنمو الانسان وكماله وكلاهما غير المفكر تفكيرا مفيدا ، أو هو الذي شاب تفكيره الكثير من الخداع والخيال .

فالانسان الذي يسلك سلوكا قريبا من الحيوانية ولا يشعر بسلوكه ان يحقق ميزة الانسان او الذي له منطق الطفل ، هو انسان رجعي متخلف أو جامد .

فالانسان الحيوان أو الانسان الطفل ، هو الرجعي والمتخلف أو هو الانسان الجامد الذي انقطع فيه السير وفق خطه المرسوم من الطبيعة البشرية السائرة المتطورة .

والانسان صاحب الاعتقاد في الخرافة انسان رجعي متخلف أو جامد ، والانسان غير المهذب في السلوك ، أو الذي بقي في دائرة الطفولة البشرية انسان كذلك رجعي متخلف أو جامد .

الانسان العصري والتطور

ان الانسان العصري (المادي) يصور التطور والتقدم في الانسانية على انه الاستجابة لنزعـات النفس في السلوك ، كنفس لها الحركة في أي اتجاه دون رعاية لاستقامتها في هذه الحركة ، وبالتالي دون حاجة الى ارادة وايمان يضمن هذه الاستقامة ..

فهذا الانسان لا يصور التطور والتقـدم وانما يصـور الرجعية والتخلف ، او يحدد الجمود وبقاء النفس في مرحلة من مراحل النمو الطفلي لا يتجاوز الى ما بعدها ، والذي يدعو الى التطور والتقدم بهذا المعنى يدعو الى العودة الى أولى مراحل النمو الانساني ، أي انه يدعو الى الرجعية أو يدعو الى الوقوف والجمود .

التطور والتقدم والرجعية والجمود

عرفنا مما تقدم ان مفهوم التطور والتقدم هو السعي نحو التهذيب ودقة التفكير في تقدير الاشياء ، ومفهوم الرجعية والجمود هو عدم الاخذ بنسبة التهذيب وطريق الدقة في التفكير وتقييم الامور .

فالتطور والتقدم والرجعية والجمود «خطان متقابلان له · خط الى الامام وخط الى الوراء ، والانسان يبتدىء في تطوره من نقطة الطفولة الانسانية التي تشبه حيوانية الحيوان، وينتهي في هذا التطور الى نقطة الرشد الانساني ، وهو مستوى الانسانية المهذب في السلوك الدقيق في الحكم والتفكير ، مما يدفعه الى الرشد الانساني فهو من عوامل التقدم ، وما يشده الى الطفولة الانسانية فهو من عوامل الرجعية ، وما يقف به عن الحركة نحو الامام الى الوراء فهو عامل الجمود .

واذن ليس من مفهوم التقدمية او التطور شد الانسان الى الحيوانية والتصرف الحيواني ، وليس من مفهوم الرجعية مساعدة الانسان على الرشد الانساني بالسلوك المهذب والتفكير الدقيق» . (١)

---

(١) الاسلام في الواقع الايديولوجي المعاصر ص ١٦ .

الروحية والمادية

أو هل الروحية رجعية والمادية تقدمية

الروحية نسبة الى الروح ، وهي الوجود الذي يدرك بالتصور العقلي ولا يدرك بالحواس .

والمادية نسبة الى المادة وهي الموجود الذي يدرك باحدى الحواس .

ثم تطور مفهوم الروحية فيشمل المثل والقيم والمبادىء . وهذه من شأنها ان لا تدرك بالحواس ، فالعدل والرحمة والتعاون ، والخير ، والبر، وامثالها وهي بالتالي تدرج تحت مفهوم الروحية ، لانها لا تدرك بالحواس .

والدين نفسه روحي لانه جملة من المثل والقيم والمبادىء، ولان مصدره هو الوحي الالهي لا يدرك بالحواس ، وهذه هي معاني انسانية تتجاوز الشخص الى الاشخاص والمصلحة الخاصة الى المصلحة العامة .

وتطور ايضا مفهوم المادية واصبح يتناول ما خضع لتجربة الانسان وملاحظته ، وعندئذ ادعت المادية انها صنو الواقعية نسبة الى الواقع الذي لا ينكر ولا يكذب •

وبهذا التطور لمفهومي الروحية والمادية اتسع التقابل بينهما ، واتسعت الفجوة في التوجيه القائم عليهما •

فالروحية المثالية أو الدين ـ تدعو الى القيم والمثل والمباديء التي تدعو الانسان الى ان يوجه سعيه في الحياة نحوها التي هي تمثل الرشد الانساني •

والمادية أو الواقعية تدعو الى الايمان بالشخص (المحس) والاستمتاع به وتدعو الى انكار القيم والمثل والمباديء لانها لا تتصور الا محسوسا، وهي تمثل الطفولة الانسانية التي لا تؤمن الا بالمحسوس ولا تدرك الا ما تقع عليه حواسها •

ونجد دعوة الروحية ليست دعوة الى الاتكاس كما شاع منذ القرن الماضي من ان مفهوم الروحية يتصل بمفهوم التخلف والرجعية وليست دفعا بالانسان الى الوراء : بل هي دفع الى الامام الى رشد الانسان وكماله وتطوره •

ونجد دعوة المادية أو الواقعية ليست دعوة الى التقدم والتطور • بل هي على العكس دعوة الانسان الى الوراء او هي دعوة الى مرحلة الطفولة الانسانية التي لا تعرف ما

سواها ولا تعترف بما عداها، دعوة الى الحيوانية في الانسان ودعوة الى اهمال الخصيصة التي تميزه عن الحيوان ، وهي مستوى الانسانية ، اذ مستوى الانسانية قيمة من القيم لا تحس وهي لا تؤمن بقيمة ما .

واذن ما توصف به الروحية من انها رجعية . وما توصف به المادية من انها تقدمية ، قد اغفل تاريخ كل من الروحية والمادية ، وحدد مفهوم كليهما من رغبات خاصة ، فبعد هذا التحديد من ان يستخدم في توجيه صحيح لمجتمع يريد ان ينهض او يستمر في النهوض والتقدم .

الحرية والكبت

اوهل الحرية من مظاهر التطور والكبت من مظاهر الرجعية ؟

الحرية هي : انطلاق في الرأي والاعتقاد في القول وفي الفعل في حدود طاقة الانسان ، والاطلاق والتقييد للحرية امران نسبيان ، اذ لا يوجد حرية مطلقة تماما للفرد أو للمجتمع ، بل كل حرية مقيدة حيث تنتهي بحرية الفـــرد عندما تبتديء حرية الآخرين •

والكبت هو : الحد مـــن الانطلاق ، حـــد في الـــراي ، والاعتقاد ، والقول ، والفعل ، والاتصال بالغير •

المادية تدعو الى الانطلاق الى الحرية ، لانها تنكر القيم ، والمثل ، والمباديء، وتؤمن بالفردية والانانية التي هي اخص مظـــاهر الطفولـــة الانسانيـــة ، ولكـــن الحريـــة بمعنى الانطلاق ليست مظهرا لتقدم الانسانوتطوره الذي هو رقي الانسان نحو مستوى الرشد الانساني ، اما التقدم بمعنى العودة الى حيوانيـــة الانسان وحدها ، والى عهـــد الطفولة

الانسانية كما يريده البعض، فهو الفوضى الحيوانية وليست الحرية ، فالتعبير الصحيح عن الانطلاق الى الحرية التي تدعو اليها المادية هي الفوضى الحيوانية وليست الحرية •

والروحية تدعو الى الحد من الحرية وعدم الانطلاق لانها تدفع الانسان نحو المستوى الانساني الرفيع وهو مستوى الرشد وفي هذا المستوى يقر الرشيد بوجود غيره ، ويؤمن بالقيم والمباديء التي تحصل منه ومن غيره وحدة في الترابط والانسجام ، والاقرار بالغير مع الايمان بوجوب الانسجام معه بجعل حرية الفرد في حدود مصلحة الغير فللفرد ان يرى، ويعتقد ، ويقول ، ويفعل ، ويتصل بالغير ، ولكن لا على الاطلاق ، بل ما يصون حرية الغير ويحفظ وجوده ، والتعبير الصحيح عن الحد من الانطلاق الذي تدعو اليه الروحية هو التنظيم وليس الكبت •

«اما تحرير المرأة الذي اقترنت الدعوة اليه بالدعوة القويه الى الحرية ، عقب الحرب العالمية الاولى ، كمظهر من مظاهر التقدم ، فيصح ان يعد من هذه المظاهر لو قصد في مفهومه الى تخليص خط سير الانسان نحو المستوى الرفيع من العقبات التي تقف بالمرأة عن السير فيه كالاعتقاد بالخرافات والتمسك بالتقاليد المظلمة ، وبذلك تسير مهذبة في سلوكها ودقيقة في احكامها وتقييمها للاشياء، ولكن لو قصد به معنى الانطلاق الذي هو الطفولة الانسانية ، فمفهومه عندئذ

العودة بالمرأة الى الوراء، واذن الدعوة الى تحرير المرأةدعوة بها الى الرجعية والتخلف،قصد بها ان تكون موضوعا ميسرا للاستمتاع كأي موضوع آخر من موضوعات 'الطبيعة المشاهدة » • (١)

ومما تقدم يتضح عدم صحة ما برز عقب الحرب العالمية الأولى من دعوة الى الحرية ؛ وقد صاحبها دعوة الى تحرير المرأة، وان الحرية مظهر من مظاهر التطور ونسب الى المادية انها تدعو الى التطور •

ويتضح ايضا مما تقدم عدم صحة الدعاية السيئة ضد الكبت وانه مظهر من مظاهر الرجعية والتخلف ونسب الى الروحية أنها بجانب التخلف •

---

(١) الاسلام في الواقع الايديولوجي المعاصر ص ٢١ .

الخرافة والتقاليد

الخرافة هي الاعتقاد بما لا ينفع ولا يضر ولا يلتئم مع المنطق السليم والواقع الصحيح ،

ومفهوم الخرافة مظهر من مظاهر الرجعية ، بلا شك ولا ريب ، ضد التطور والتقدمية .

واما اذا قصد بالخرافة المعاني الروحية ، ومباديء الدين وتعاليمه ، فقد رأينا ان الدعوة الى المباديء والقيم باسم الروحية أو باسم الدين أو باسم الانسانية هي دعوة الى الرشد الانساني ودعوة الى المستوى الرفيع من مستويات الانسانية .

والتقاليد ، هي جملة العادات التي لمجتمع معين ، فقد تكون متأصلة فيه وقائمة على اساس من القيم والمثل التي يسعى الى تحقيقها،وعندئذ لا يكون مفهومها مناوئا للتقدمية وقد تكون تسللت اليه من مجتمع آخر ودعاه الى قبولها انحطاط المستوى القائم وضعفه عن دفعها من جديد، وعندئذ

فهي كالخرافــة في مدلولهــا وآثارها . والعادات والتقاليد الموجودة عند المسلمين فما كان منشأها الدين فهي منه ، وما كان ليس منشأها الدين ولا تلتئم مــع اصوله فهي غريبة عنه ، وتندرج في الاساطير والخرافات التي لحقت بالمسلمين بعد ابتعادهم عن دينهم السلامي الحنيف .

التطور والدين

عندما يبتديء الحديث عن التقدمية ينساق الى التطور والى الواقعية ، والحريــة وتحرير المرأة ، فهي عبارات في سلسلة واحدة ، وكأنها تنبثق من أصل واحــد في الاتجــاه والتوجيه ، وأي حديث عن مفهوم منها ينجر الى البقية .

وكذلك الحديث اذا ابتدأ عن الروحية يتصل بالدين ، والرجعية ، والجمود والخرافة ، والتقاليد والكبت ، لأنه يراد بها تعبيرات مختلفة لفكرة واحدة .

فمفاهيم التقدمية، ومفاهيم الروحية، يبدو أنها مجموعتان متقابلتان ،فاذا ذكر الشيء المحبب الى النفوس ينسب الــى مفاهيم المجموعــة الاولى واذا ذكرالشيء الذي تكرهــه النفوس نسب الى مفاهيم المجموعة الثانية .

وهذه النسبة او تلك لا تحملها ذات المفاهيم ، لأن المفاهيم من تحديدات الفكر فليس من شأنها ان تكون ذات طابع وجداني خاص ، وليس مــن خصوصياتها ان تصور عاطفة معينة .

وانما هذه النسبة اوحى بها ما يسمى بـ «تداعي الاماني» فاذا ما ذكر في الكتابة والنقد شيء انه مرغوب به أو مرغوب عنه ، وتكرر ذلك ارتبط في النفس البشرية بما يثير الرغبة فيه أو الرغبة عنه ، وكذلك اذا ذكر المفهوم لانسان بعد ذلك تداعت في نفسه الرغبة به أو الرغبة عنه عقب ذكره .

واصبح كل حسن في هذا العصر ينسب الى التقدميه ومما يلحق بها» وكل قبح ينسب الى الروحية وما يلحق بها ، وان كان ذلك يرجع الى الدعوى الى التقدمية ، ورفض الروحية بالقول والعمل ، فالقول يختلف عن وسائل الدعاية والنشر ، والعمل بالتغيير العملي في الحضارة الصناعية والفكر العلمي الآلي أو الميكانيكي بكل ما وصلت اليه الحضارة المادية الحديثة من تقدم وازدهار وافتتان الناس بها بحيث اعمت ابصار الكثير منهم وبصائرهم وابعدتهم عن روحيتهم ودينهم.

التقدمية التي يدعو اليها دعاة الانقلاب الصناعي في الحضارة الصناعية ، ليست دعوة الى التقدمية والتطور ، ولا الفكر العلمي الرياضي الميكانيكي ، وانما هي التقدمية في سلوك الانسان وفي تصوره لمثل الحياة وقيمها .

فهم يريدون بالتقدمية ما يراد بالرجعية من مفهوم وهو التنزل عن انسانيته الى حيوانيته والارتداد الى الوراء من مرحلة الطفولة الانسانية ، وهي المرحلة التي تغلب عليها الانانية والماديه الحسية والنفعية المتبادلة وعدم الاقرار بالمثل والعلاقات الانسانية .

التقدم الصناعي والتقدم الاخلاقي

التقدم الصناعي يقوم على الحضارة المادية الصناعية ـ التقدم العلمي الميكانيكي ـ وهي تقوم على الصلب والحديد والقوة المادية المحركة ، والفكر العلمي الرياضي الميكانيكي الذي يستخدم الآلة ، وينتقل بها من طور الى طور على اساس من التجارب المادية والتحليل الكيميائي .

والتقدم الاخلاقي يقوم على سلوك الانسان من تصوره لمثل الحياة وقيمها ومبادئها وتجاوز حد الانانية ، وهي الاسس اللازمة لمجتمع انساني سليم متعاون بدافع ذاتي ، لا برهبة القانون ، والخوف من السلطة القائمة عليه .

والتقدم الصناعي يقوم على التقدم العلمي الميكانيكي الآلي ، ولا يلزمهما ان يكونا نتيجة لتقدم القائمين عليهما في السلوك ـ فضلا عن شعوبهما ـ ، فالمجتمع الغربي الحديث ، مجتمع صناعي متقدم في الفكر والعلم الرياضي الميكانيكي، ومع ذلك، فهو مجتمع مفكك تغلب عليه الانانية والفردية ، ويسوده القلق النفسي وعدم الاطمئنان ، ليس

لهم هدف الا الغلبة والسيطرة على الشعوب والافراد ، ولا يعرف قيما ومبادىء ولا مثلا ، ولا يعرف خالقا لهذا العالم وان تحدث عنه فمن اجل السيطرة ، وقد اثار حربين عالميتين في نصـف قرن ، وربما يثير حربا ثالثة ورابعة في النصف الاخير من قرننا العشرين .

وقد يكون هناك انسان بدائي يركب الناقـة ويشرب الحليب من ضرعها مباشرة ، ولا يعرف الصناعة ولا الآلة ، كيف تدار ، ومم تركب ، ومع ذلك هو انسان متقدم في سلوكه وفي علاقته بغيره مجتمعا وافرادا .

فقد كان رسول الله محمد بن عبدالله (ص) انسانا اميا يتيما نشأ في مجتمع امي بدائي في قلب الصحراء ، ومع ذلك كان مثلا اعلى للانسان صاحب المستوى الانساني الرفيع ، لا لانه رسول الله (ص) ، ولكنه اخـذ نفسه منذ الصغر عن طريق الايمان والارادة بالترفع عن الدنايا والعطف والحنو على الغير حتى عرف بالايثاري ، والايثار هو المثل الرفيع في الانسانية ، لانه ينشأ عنـه هجر مـا للانانية من نزعات ، مؤثرا ان يستجيب لحاجة الغير دونها .

ولم يكن مجتمع الصحابة (رض) مجتمعا صناعيا ولم تكن عقليتهم عقلية رياضية ميكانيكية آلية ، ومع ذلك كان مجتمعهم نموذجـا المجتمع الانساني المهـذب المتماسك

المتعاون على البر والتقوى تقوده محبة الله نحو التضحية وبذل المال والنفس والولد ، والله جل جلاله ليس عملة يتبادل واياها المنفعة المادية ، ولكنه الرب والمعبود الذي تطيب بلقياه النفس وتضرع اليه في الازمات والكروب(١).

---

(١) الاسلام في الواقع الايديولوجي المعاصر ، ولقد اعتمدنا عليه في تحديد المفاهيم المتقدمة .

اي شيء يتطور ؟ ما مقياس التطور عند الناس ؟
هل الاختراع صدفة او عن قصد ؟ هـل الآلة
انشات جديدا او حققت رغبة ؟ اقسام التطور ،
العصور الوسطى والتطـور الاسلامي ، التطور
وهـذا العصر والدين ، المثقفون والكتـاب
الشرقيون والتطور .

أي شيء يتطور

بعد ان انتهينا من عرض جملة من مفاهيم التطور وتحديدها بالقدر المستطاع ، نتساءل عن الشيء الذى يتطور ولايضاح ذلك نطرح السؤالين التاليين ونجيب عليهما : .

السؤال الاول :

هل تطورت غرائز الانسان وفطرته ؟

الجواب :

من الواضح : ان نظرة الانسان وغرائزه لم تتطور ، اذ ان الانسان منذ البداية كان يحب ما يلائمه ويكره ما لا يلائمه ، وسيبقى كذلك ما دام انسانا ، وهكذا بقية غرائزه ــ مثلا ــ كان الانسان يميل الى الجنس الآخر منه وسيبقى كذلك ، وهكذا بقية غرائزه كانت ولا تزال تتطلب اشباعها وارواءها .

وانما الذي يتطور هو الوسائل المادية التي تشبع غرائز

الانسان ، فالانسان كان يشرب الماء عكرا والآن يشربه زلالا ، وكان يسكن الكهوف والاكواخ ، وبيوت الطين ويلبس الحشيش وجلود الحيوانات وصوفها وشعرها ، فاصبح بأفضل النعم وأحسن الملاذ ، يسكن ناطحات السحاب ويجلب ما يلائمه من الهواء الحار او البارد في الشتاء والصيف ، ويرى ليلا كما يرى نهارا، ويلبس ويأكل ويشرب ما لذ وطاب من المآكل والمشارب والملابس .

ونحن لا نفصل هداية الله تعالى عن الانسان والامر له منذ اللحظة الاولى التي اوجده فيها على الارض ، ولكن الانسان هو نفسه انحرف عن خط الله وعن هدى الله وعن رسالات الله ، فأخذ يعبد الشمس والقمر والشجر والحجر وغيرها من مخلوقات الله تبارك وتعالى ، وليس هذا مختصا بالاشخاص الذين لم تصلهم دعوة الله سبحانه ، بل واقع في الذين وصلتهم دعوة الله ولكنهم لم يتفهموها كما يريده تعالى ، بل فهموها كما اراد لهم اباؤهم وضلالهم الذين حالوا بينهم وبين السير على خط الله تعالى .

السؤال الثاني :

هل تطور فهم الانسان ومفاهيمه والوسائل المادية التي تشبع غرائزه ورغباته ؟

الجواب :

من البديهي ان مفاهيم الانسان تطورت تبعا لتطور فهمه

للاشياء وتطور اساليب الحياة لديه عبر العصور .

فان انسان الغاب الذي كان يعيش في العصر الحجري في الكهوف والغابات على النباتات ولم يكن يستر بدنه سوى حشائش الارض واوراق الاشجار يختلف فهمه عن حياة الانسان الذي تلاه وجاء بعده ، وكان يعيش في عصري رعي الماشية والزراعة ، فيعيش على نبات الارض وعلى الصيد ويستر بدنه بجلود الحيوانات التي يصطادها .

وانسان عصر التقنية ومعامل الذرة والمواصلات السريعة التي تطورت من القدم والدابة والجمل الى السيارة والطيارة والباخرة والغواصة ، يختلف كثيرا عمن سبقه من الاعصر الثلاثة ، عصر الغاب والكهوف والصيد وعصر رعي الماشية وعصر الزراعة .

وبمقدار ما يتطور الانسان يتسع فهمه ومفاهيمه عن الحياة وعن الكون وما حوله من الموجودات التي عرفها واخترع لها اسماء ليميز بعضها عن بعض .

وكيف لم يتطور الانسان بفهمه ومفاهيمه وكان قبل سنوات يحسب الصوت عدما اذا بعد عنه قراريط ويحسب ما حوله من المخلوقات والموجودات غير المرئية عدما كالأثير والاشعة السينية وغيرهما مما لا يحصى .

وبمقدار تطور الانسان واتساع فهمه ومفاهيمه توسعت مداركه وتحسنت اخلاقه وقويت علاقاته ، وذلك بما اوجده الله تعالى فيه من قوة عاقلة مفكرة خلاقة مدبرة وتسمى باصطلاح الشرع والمتشرعة العقل الباطني او الرسول الباطني ، وقد سدد الله سبحانه العقل الباطني بالرسل والانبياء ، وبما انزل عليهم من كتب السماء لاصلاح الانسان وتقويم اعوجاجه وتعديل انحرافه والسير به على الجادة المستقيمة التي تصل به الى شاطىء الامن والسلام وسعادة الدنيا والآخرة .

ما مقياس التطور عند الناس ؟

ما مقياس التطور ؟ هل هو مقياس الزمن ، كل جديد تطور وتقدم ، وكل قديم رجعية وتأخر ؟

هـل الثلاجة الكهربائية والمخ الالكتروني هو مقياس التقدم ، او الانسان هو المقياس ؟

وسيقول قائل : أوليس الانسان هو الذي صنع الثلاجة والمخ الالكتروني ؟

نعم هو ، ولكن كيف يستخدم هذا ؟ هو المقياس .

فهل هو يستخدمها بما يشعره بمشاعر انسانية مع اخوته من بني نوعه من تقديم وسائل الراحة لهم ليكون انسانا مع صديقه وعدوه ؟ أم انه يستخدمها لتصبح انسانا وحشيا ساحقا بغيضا انانيا تعميه وحشية الصراع ؟

وهل يستخدمها للحفاظ على المجتمع ، للتنظيم والتثقيف

واعطاء الحرية للانسان ليفكر ويعمل ؟ أم انه يستخدمها للابادة والتفرقة العنصرية والاستعباد والفوضى الخلقية ، والانتحار وتحطيم الاسرة والمجتمع .

فبأي المقياسين يستخدم ما يصنعه من التقنية الحديثة .

أي خير قدمه العلم للبشرية في النهاية في ظل التوجيه الفاسد والنظرة المرتكسة الحيوانية الى الانسان ؟ ولن نلغي العلم ونسقطه من ميزان التقدم ، ولن نلغي الجو الاجتماعي والاقتصادي والنفسي بل لكل واحد منها وزن في الميزان .

هل الاختراع صدفة أم عن قصد؟

هل الاكتشافات والاختراعات التي اوجدهـا الانسان صدفة من دون ان يكون للعناية الالهية غايـة او قصد بذلك .

أي هل الانسان هو الذي اتجه الى الاكتشاف والاختراع بخاصيته البيولوجية صدفة ـ كما يقول الداروينيون ـ او الله سبحانه وتعالى الذي جعل الانسان خليفة في الارض وهـو الذي زود الانسان بخاصيـة البحـث والكشف والاختراع ، ومنحه هـذه الخاصية ، لانها مـن وسائل الخلافة ، ولا يتنافى ذلك مع العلم .

والله سبحانه هو الذي قيض للانسان اكتشاف النـار ـ لا المصادفة ـ بأن اودع في فطرته الالتفات الى ظواهر الطبيعة والاستفادة منها ، والا فالمصادفة التي احدثت النار امام الانسان والتقط منها جذوة النار واستخدمها ، تحدث ملايين المرات امام الحيوان فـلا يدركهـا ولا يتصورها ليستخدمها .

فالله سبحانه قد اودع في الانسان ، بحسب فطرته ، القـدرة على التطور والتفكير والاكتشاف والاختراع ، واستخدام ما يصنعه وتحسينه . كما وانه سبحانه اودع في الانسان قوة النطق للتعبير عما يريد . كما وانه سبحانه اودع في الانسان القيم والمثل والمبادىء والتقاليد وربط الاعمال .

ان صورة الحياة قبل اكتشاف اية آلة تختلف عنها بعد الاكتشاف ، اذ تحدث للنـاس افكار وعلاقات رمشاعر وتنظيمات جديدة .

هل الآلة أنشأت جديداً أو حققت رغبة؟

والذي نريد ان نذكره هنا ، هل الآلة انشأت جديدا في كيان الانسان ؟ او انها حققت رغبات كامنة في فطرته .

والفرق بين الفرضين كبير ، فحين ترسم الآلة جديدا في كيان الانسان ، تكون الآلة هي الاصل في التطور — كما يرسمها التفسير المادي للتاريخ — وحين تحقق رغبات كامنة في فطرة الانسان يكون الانسان هو الاصل في التطور ، كما يرسمه التفسير الانساني للانسان .

ومن الواضح البديهي ان الآلة لم توجد شيئا جديدا في كيان الانسان وفطرته فلم تزد في قصره ولم تنقص من طوله ولم توجد فيه غريزة جديدة ولا نقصت منه غريزة وانما كل ما اوجدته الآلة انها اوجدت الوسائل المادية التي تشبع غرائزه ولن تشبع ابدا .

ويتلخص من بحثي الاختراع والآلة ما يلي :

١ — ان الفطرة هي الاصل في تصرفات الانسان .

٢ ـ الآلات المستحدثة في ذاتها تعبير عن النظرة من حيث القدرة على التفكير التصوري والرغبة في التحسين •

٣ ـ الآلات المستحدثة تسير على هدى الفطرة في تطبيقاتها العملية من حيث تحقيقها لرغبات الانسان •

٤ ـ انها في تطبيقاتها العملية لا تنشيء جديدا وانما تحقق ما كان كامنا من قبل في ذلك الكيان •

٥ ـ انها تغير صورة الحياة تغييرا شاملا غير ان هذا التغيير يحدث استجابة لمطالب الفطرة •

اقسام التطور

هناك اصناف اربعة للتطور بحسب الاستقراء لتغير البشرية •

١ ـ التطور في الادوات واساليب الانتاج •

٢ ـ التطور في التشابك الاقتصادي والاجتماعي في بنية المجتمع •

٣ ـ التطور النفسي (السيكالوجي) •

٤ ـ التطور الاخلاقي •

اما الطور الاول والثاني ، فالارتباط وثيق بينهما في استعمال الادوات واساليب الانتاج •

والتشابك الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع ، يؤثر كل منهما في الآخر ويتأثر به ، ولكنه ليس ارتباط النتيجة بالسبب ، وانما ارتباط المواكبة والمصاحبة ، لان التطور

الاجتماعي والاقتصادي والسياسي يستند الى اسباب نفسية غير مرتبطة بأدوات الانتاج ، كما وان التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي كالتطور العلمي لا يخرج الانسان عن فطرته ، لان الناس يحكمونه بنظرتهم في نهاية المطاف ، وهو يحقق الفطرة في جوانبها .

اما التطور النفسي ، أي التعقد النفسي ، في كيان الانسان ، فالتفسير المادي للتاريخ يؤكد أنه نتيجة مباشرة لتطور اساليب الانتاج ، ولا شك ان تطور اساليب الانتاج عامل مؤثر ، ولكن التطور النفسي ظاهرة مستقلة الى حد كبير ، يمكن ان توجد بمنأى عن تطور اساليب الانتاج ، كما وجدت في الحضارات القديمة ، ووجدت في اعلى مراحلها في الاسلام .

واما التطور الاخلاقي ، فلم ينشأ عن تطور اساليب الانتاج ، والتاريخ يشهد بذلك ، لانه لا توجد ظاهرة مستقلة تمام الاستقلال عن الاخرى في الحياة البشرية ، غير انه لا انفصال بين ظاهرة واخرى ، لان الانسان يمارس حياته بكيانه كله ، وهذا الكل يحتوي على جوانب متخصصة ، ولكنها ليست منفصلة ، فعملية الابصار - مثلا - يختص بالجهاز البصري ، فلا يبصر الانسان بيده او اذنه ، ومع ذلك لا ينفصل الجهاز البصري عن بقية الجسم ، وكما توجد في الجسم اجهزة شديدة

التخصص كجهاز الابصار او السمع ، فان فيه كذلك اجهزة ، بل اكثر تخصصا واوسع نطاقا ، كجهاز الدورة الدموية الذي يدخل في كل اجزاء الجسم ، وكذلك الامر في الكيان البشري في مجموعه .

فالتطور في استخدام الادوات واساليب الانتاج ، يؤثر في الحياة البشرية كلها ، نعم لا شك بذلك ، ولكن التطور النفسي والتطور الخلقي عمليتان شديدتا التخصص كالسمع والابصار .

العصور الوسطى والتطور الاسلامي

في العصور الوسطى كان الجمود هو الطابع المسيطر على الحياة كلها في الغرب ٠ وكان مفهوم الجمود في اوروبا مستمدا من الدين الكنسي المنحرف ، وهو لا يحكم الوجدان عندهم الا قليلا ٠ واما واقعهم فكانت تحكمه نظم مستمدة من اصول وثنية من القانون الروماني واهواء حكام الاقطاع مما لا علاقة له بالدين ولا عقيدة ولا نظاما ـ أيام قتلت الكنيسة لجهلها كوبرنيكوس (١) وجاليلو(٢) وجودا نوابروتوا(٣) وعذبتهم ونكلت بهم ابشع تنكيل حين عارضوا فكرتها في ان الارض مركز الفلك والانسان مركز الكون،وقد تكون الجماهير استبشعت عمليات التنكيل والتعذيب ، ولكنها رغم ذلك وقفت في صف الكنيسة لانتصارها على الملحدين ٠

وكان العالم الاسلامي قد اخذ دوره من النشاط الحي

---

(١) التطور والثبات ص ١٩ ٠

المتحرك الغلاب ، فحرك الحياة وطورها في كل مكان حل فيه . وكان التطوير شاملا لشتى الاتجاهات ايام كان فيها يشرع للوجدان عقيدة وللحياة العملية على السواء .

« وعلى الرغم من الفساد الجزئي الذي اصاب الحكومة الاسلامية مبكرا وخاصة منذ عهد الدولة الاموية ، فان الدين لم يعش في عزلة عن المجتمع قط ، الا في العصر الاخير من القرن الثامن عشر الميلادي وما تلاه ، بعد الحملة الصليبية التي قادها نابليون على مصر ، وتبعتها حملات صليبية متعددة على العالم الاسلامي فرنسية وانجليزية وبلجيكية وهولندية والمانية ، ثم امريكية في صورة استعمار حربي واقتصادي وسياسي ، يعمل بادىء ذي بدء على خلع الحكومة المسلمة القائمة بتنفيذ شريعة الله واخضاع الحكم لتشريع غير رباني ويضعه غير اسلامي» (١) .

يتردد على الالسنة تصوير العصر الاسلامي الزاهي بأنه هو من العصور الوسطى المظلمة ، ومن الحق ان يقال :
ان العصور الوسطى تاريخيا انما هي الفترة الواقعة بين سقوط روما في القرن الرابع المسيحي وبين عصر النهضة الاوروبية في القرن الخامس عشر ، هذه الفترة يطلق عليها الاوروبيون فترة العصور الوسطى المظلمة ، حيث سادت

---

(١) التطور والثبات ص ٩٥ .

اوروبا حالة من اسوأ حالات الضعف والتأخر .

وهذه الفترة التي تسمى القرون الوسطى بالنسبة الى اوروبا ، وهي منذ القرن السادس الميلادي في العالم الاسلامي هي فجر الاسلام، وامتدادها هي امتداد الحضارة الاسلامية التي وصلت الى حدود الصين شرقا وحدود فرنسا غربا .

فالمسلمون سبقوا اوروبا الى الحضارة والاكتشاف والاختراع بما يقرب من الف عام، فاطلاق العصور الوسطى وتعميمها على كل العالم ، هذا اطلاق ظالم .

فالعصور الوسطى المظلمة انما كانت بالنسبة الى الغرب وحده ، واما بالنسبة للهند والفرس والعرب ومصر والمغرب كله والاندلس مضيئة ومشرقة .

التطور وهذا العصر والدين

العصر عصر تطور ، كل شيء فيه تطور ، الافكار ، العقائد ، القيم (التقاليد) ، المفاهيم ، الاخلاق ، الصورة المادية للحياة ، المسكن ، الملبس ، المأكل ، المشرب ، وسائل المواصلات ووسائل الاعلام ، الحرب ، السلم ، الآلة ، الانسان .

لا يمر يوم ، بل ولا ساعة ، الا ويذكر فيها لفظ التطوير من مغرب الدنيا الى مشرقها ، في الغرب المتحضر ، والشرق المتأخر ، في كل مكان وزمان ، ولا يوجد عمل ، ولا مفهوم الا ويدخل فيه فكرة التطور .

وحين تستولي فكرة التطور على افهام الناس بهذا الشكل ، فلا بد وان يصطدم تفكيرهم بالدين ، فالدين في حس البشرية يمثل الثبات ، ثبات الاله ، وثبات العقيدة ، وثبات العبادة ، وثبات القيم (التفكير) وثبات المفاهيم .

اذن ، فما دام الدين يمثل هذا الثبات في حس البشرية ،

فلا بد ان يصطدم في حسها بمفهوم التطور الشامل الذي يأبى الثبات ولو كان فكره فكرة الدين •

وفي الغرب بالفعل اصطدمت فكرة التطور ، بالدين ، وقام بينهما صراع عنيف منذ عصر النهضة الذي قام على اساس لا ديني ، وانتهى الصراع بتنحية الدين عن الحياة العملية والاقتصاد والاجتماع والسياسة والعلم والفن ، ولم يبق له الا ركن ضئيل في حياة الافراد يشبعون ميلهم الشخصي بالذهاب الى الكنيسة او اتباع بعض تعاليم الدين في السلوك الشخصي ، بينما الحياة كلها تحكمها المفاهيم المضادة لفكرة الدين •

وفترة الصراع الذي كان قائما في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في اوروبا ، ورجال الدين لم يعد في وسعهم الا الرضى من الغنيمة بالسلامة الشخصية والانعزال عن الركب المتحرك ، او محاولة اللحاق بالركب عن طريق تطوير الدين ، وجعله تابعا ذليلا للتطوير ، بعد ان عجز عن قيادة الحياة •

اما في الشرق الاسلامي ما زال الصراع قائما بين رجال الدين ورجال التطور ، لان الدين ما زال له قبضة على نفوس الجماهير كعقيدة وفكرة ان لم يكن كواقع وسلوك رغم الجهد الضخم الذي يبذل لتفتيت العقيدة وتحطيمها

وتحويل الاتهامات عنها الى مفاهيم وافكار جديدتين ؛ ولان التطور ايضا لم يبلغ مداه بعـــد ، والذي يحمل في طياته المفهوم اللاديني للحياة ، وبعد ما تزال في الشرق المعركة قائمة على قدم وساق(١) ٠

---

(١) التطور والثبات .

المثقفون والكتاب الشرقيون والدين والتطور

يختلف موقفهم من الدين بقدر اصطباغهم بالفكر الغربي ودرجة صراحتهم وهم اقسام :

١ ـ منهم من يهاجم الدين صراحة ، وانه بقية من الماضي المظلم ينبغي زواله ، وخرافة ينبغي ان لا تعيش في عصر النور •

٢ ـ ومنهم من لا يجد في نفسه الجرأة لمهاجمة الدين صراحة ، فيستتر وراء مهاجمة الافكار الرجعية ورجال الدين ، فيهاجم المفاهيم الدينية وهو آمن من تهمة الالحاد والمروق ، يجرأ ان يقول : الله رجعي ، لانه يقصر ابداء زينة المرأة على زوجها ومحارمها ، لان هذا القول الوقح يعرضه لغضبة الجماهير ، فلا ينسبه الى الله وينسبه الى رجال الدين الرجعيين ، ولا يجرأ ان يقول : ان الله مخطىء حين يحرم الفاحشة وقيام أي علاقة جنسية خارج الزواج الشرعي ، فلا ينسب هذا التحريم الى الله ، وانما يقول : ان المفاهيم الرجعية للاخلاق هي التي تحرم الصداقات

والعلاقات بين الجنسين ، وهي مفاهيم باليـة ، ينبغي ان تتطور وتزول •

٣ ــ ومنهم من يقول : ان الدين افكار سامية ، ولكن تشريعاته قد جاءت لعصر معين فينبغي بقـاء الدين روحا صافية لا تحكم الحياة العملية حفاظا على افكاره السامية من اصطدامها بالتطور فتتحطم ، فيبقى الناس بلا هداية من روح الدين •

٤ ــ ومنهم مـن لا يذكر اسم الدين ، وانما يهاجم المفاهيم الدينية ، ويسخفها لعدم تمشيها مع التطور ، ويدع هذا التسخيف يفعل فعله الخفي في تحطيم القيم الدينية دون ان يتعرض لذكر الدين •

٥ ــ ومنهم من ينسب للدين كل ما يريد بثه من افكار تطورية بحجة مرونة الدين وصلاحيته للحياة في كل عصر ، فيبيح تبرج المرأة وابداء زينتها والاختلاط وقيام عـلاقة بين الجنسين بالنوادي ، ويبيح نقد المفاهيم ، بل النصوص الدينية ، ويبيح تبديل بعض المفاهيم الدينية (لان الناس اعلم بأمور دنياهم) وبكلمـة يبيـح نقض الدين بحجـة التجديد والتطور •

٦ ــ ومنهم المضللون المخدوعون يكتبون باخلاص عن

وجوب تطوير الدين حتى لا يفوته الركب وينعزل في زوايا النسيان .

* * *

والجماهـير تتشرب الايحاءات المختلفة التي نصب في اذهانها بمختلف وسائل الاعلام والنشر ، الكتابة ، والقصة، المسرحية ، المقال ، الخبر ، التحقيق الصحفي ، الرسم ، النكتة ، الصورة ، الاذاعة ، التلفزيون ، السينما ، وتستمر هذه المفاهيم تصطدم في نفوسهم بوعي وغير وعي لمفهوم الدين .

ونتائج ذلك متباينة ، فبعضهم ينتهي به الامر الى الخروج من الدين ، وبعضهم يقصر الدين في وجدانه ويعزله عن الحياة العملية ويسمح لنفسه بفعل كل موضة تفد بفعل التطور وبعضهم يتحجر ويتجمد على مفاهيم معينة يظنها هي الدين ويخاصم الحياة المتحركة كلها لانها خروج عن الدين ، وبعضهم يبقون في حيرة لا يدرون ماذا يفعلون(١) .

---

(١) التطور والثبات .

- دور الدين والعلم ،

- الدين والمدنيـــة ،

- مشكلة الدين في واقع اتباعه .

دور الدين والعلم

يقول الكثيرون : اننا انتهينا من دور الدين وجاء دور العلم والتطور •

ويفترض هؤلاء ان اصطداما بين الدين والعلم فا،ٍ ، ونحن اذا عرفنا الفرق الكبير بين دور الدين ودور العلم والتطور ، يتضح لدينا جليا انه ليس هناك اصطدام بين الدين والعلم • كما انه يتضح ان اية حضارة لا يرعاها الدين سائرة نحو الدمار •

ان دور العلم في الحياة : هو ان يصنع الآلة التي تنتج قوى الخير كما تنتج قوى الشر ، وتصنع ادوات البناء والعمران ، كما تصنع ادوات الخراب والدمار •

ان الذرة وهي اجدى العناصر التي يمكن ان تخدم البشرية اذا استخدمت في نطاق الاساليب السليمة يمكن ـ في الوقت ذاته ـ ان تدمر الانسانية عندما تصنع منها القنبلة الذرية •

وهكذا يهيء العلم للانسان ان يسير بمنجزاته نحو خدمة الحياة ، كما يمكن ان يسخرها لتدميرها .

وان الدين هو القوة التي تحفظ للانسان توازنه وتبني له ضميره وتسير به في اتجاه خدمة الانسانية .

فالدين يثير في الانسان الضمير الحي الذي يؤنبه ويحاكمه ، ويبعث فيه الوجدان الحي والعاطفة الصادقة ، التي تتجه به نحو الاحساس الواعي بقضية الانسان وحضارته .

ان العلم بحاجة الى الدين دائما من اجل ان لا ينحرف عن طريق الله ويتجه الى طريق الشيطان .

ان دور العلم ان يصنع الآلة ، اما دور الدين فهو أن يعلم الانسان كيف يستخدم الآلة ، وكيف يوجهها في طريق الخير .

اذن ، الدين يحمي العلم ويصونه بدلا من ان يعارضه ويصادمه .

الدين والمدنية

هل التمدن عقبة في سبيل الدين ، او الدين عقبة في سبيل التمدن ؟

اذا قصد بالتمدن التهذيب والسمو في السلوك الانساني والارتفاع عن الانانية الطاغية في المعاملة فالدين مصدر هذا التمدن . نقرأ قول الله تعالى على سبيل المثال :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ .

وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ . بِئْسَ الإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ

بعضَ الظنِّ إثمٌ ، ولاَ تجَسَّسوا ولاَ يغتَبْ بعضُكُمْ بعضاً . أيُحِبُّ أحدُكُمْ أنْ ياكُلَ لحمَ أخيهِ ميتاً فكرِهتُموهُ واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ توَّابٌ رحيمٌ . يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خلقناكُمْ مِنْ ذكرٍ وأُنثى وجعَلْناكُمْ شعُوباً وقبائِلَ لتَعارَفوا إنَّ أكرَمكُمْ عِندَ اللهِ أتقاكُمْ إنَّ اللهَ علِيمٌ خبيرٌ .»[1]

فهذه الآيات تنادي بتأكيد الاعتبار الانساني لكل فرد ، وبعدم انتهاك حرمته في حضوره او في غيبته على السواء ، وبمساواة الجميع في خصائص الطبيعة البشرية ، وبجعل التفاضل بين الافراد فقط في مستوى التهذيب والسلوك الكريم والاخاء والمحبة الذي يعبر عنه هنا ب : «التقوى» .

وكثير من مثل هذه الآيات يوضح مدى السلوك الحسن الكريم ومدى التصرف القائم على الاعتداء وطغيان الانانيات وانتهاك حرمات الآخرين .

واذا قصد بالتمدن الصناعة والتطور الحضاري والتقدم

(١) الحجرات آية ١٢ ـ ١٣ ـ ١٤ .

التكنيكي ، فالدين كذلك يحث عليه ويدفع اليه نقرأ قول القرآن الكريم :

« لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الكِتابَ والمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ . وأَنْزَلْنا الحَديدَ فِيهِ بَأسٌ شَدِيدٌ ومَنافِعُ لِلنَّاسِ ، ولِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ورُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ »[1] .

فسوى القرآن في هذه الآية بين كمال الله والحديد واثرهما في حياة الناس ، فان كانت الهداية والعدل من نتائج الايمان بكتاب الله فهناك المنافع من استخدام الحديد تنتهي جميعها الى القوة والعرق في الحياة .

والحديد وما يشبهه من معادن مصدر الصناعة وموضوع التطبيق العلمي الهندسي وبناء على ذلك اذا اغفل الانسان كتاب الله او اغفل الصناعة في حياته فقد اضعف نفسه واضعف امته او اذا اغفلهما معا فتلك هي الكارثة التي لا يستطيع التغلب عليها .

---

(١) الحديد ـ آية (٢٦) .

وان قصد بالتمدن الانحلال في الاخلاق والسلوك او الرفاهية على حساب الاخرين او التسلط وانتهاك الحرمات الشخصية للاخرين او ما شاكل ذلك مما يؤذي الانسان ويحط من شأن الكرامة البشرية ، فالدين عندئذ عقبة في سبيل التمدن ، او التمدن ايضا عقبة في سبيل الدين . قال تعالى :

« وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ »[1] .

« وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ »[2] .

---

(١) المائدة ـ آية (٥٠) .

(٢) المائدة ـ آية (٥١) .

•مشكلة الدين في واقع أتباعه

نحن مؤمنون ومتدينون لا نفهم الدين ، وانما نحاول ممارسة بعض شكلياتـه بنحو اوتوماتيكي آلي دون ان يكون له اثر على حياتنا وسلوكنا في انفسنا وفي بيوتنا .

نحن مؤمنون ومتدينون ، ولكن تنفذ كل خطط الكفر ومخططاته بحسب تنوعها واختلاف ظروفها والله سبحانه يقول :

« فَلاَ تُطِعِ الْكافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِيراً »[1] .

ونحن مؤمنون ومتدينون ، ولكن نسير خلف الظالمين الذين يستغلون سذاجة البعض منـا ويمتصون دمـاءنا ويسلبون خيراتنا وامننا وسلامتنا بما يثيرونه في حياتنا من فرقة وخلاف يفصل الاخ عن اخيه والوالد عن ولده والزوج

---

(١) سورة الفرقان آية ٥٣ .

عن زوجته والصديق عن صديقه والجار عن جاره ، ولا نحصل من ورائهم الا كمن يحصد الشوك بيديه ، والله سبحانه يقول :

« وَلاَ تَرْكَنُوا إلى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَالَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ »[1] .

نحن مؤمنون ومتدينون ، ولكن نحمل في قلوبنا الحقد والضغينة والشحناء والبغضاء لاخواننا في الايمان والله سبحانه يقول :

« رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ »[2] .

نحن مؤمنون ومتدينون ، ولكن لا نراقب الله في كل صغيرة أو كبيرة ، وانما نسير ونعمل بوحي من شهواتنا ورغباتنا ونتصرف ونحرم دون أي رادع او وازع ، كأنه

---

(١) سورة هود ـ آية ١١٤ .

(٢) سورة الحشر ـ آية ١١ .

ليس هناك رب يراقبنا واله يشاهدنا .

نحن مؤمنون ومتدينون ولكن نمارس الغيبة والنميمة والكذب والبهتان والفحشاء والزنا ، وشرب الخمر والغش والخداع وكل اساليب الشر والانحراف .

وبعد هذا وغير هذا ، أي شيء بقي لنا من الدين .

ان الدين ليس مجرد فكرة معلقـــة في الهواء او صفة تلصق بحسب الاهواء او نسبة عائلة كالانساب ، وانما الدين عقيدة تخطط وتوجه وفكر ينير ويهدي ، وسلوك يثأر وينفعل ويستجيب لنداء الله رب العالمين(١) .

---

(١) المسائل الدينية .

تصحيح المفـــاهيم

تصحيح المفـــاهيم

ان لتصحيح المفاهيم الاثر البالغ الاهمية في تاريخ الامة وهذا ما يستدعي القاء نظرة واسعة على الاخطاء الكثيرة التي شاعت في المؤلفات والكتب الدراسية والتي حــاول المستعمرون تعميقها • ويمكن تقسيم هــذه الاخطاء الى امــور :

١ ــ حملات الاستعمار على افريقيا وآسيا التي توصف في الكتب المدرسية بأن اوروبا في السنوات الاخيرة من القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر مهدت حركة اكتشافات جغرافية واسعة ، وقد وصــل الاوروبيون الى الهند بالدوران حول افريقيا •

والواقع ان هذه ليست كشوفــا جغرافية ، ولكنهــا فتوحات استعمارية ، كانت بعيــدة عن روح العلم وعن اسلوب الكشف ، وانما كان المقصود منها تطويق العــالم الاسلامي من الخلف •

فالبرتغاليون لم يكتشفوا الهند ولا اكتشفوا افريقيا ، اما الهند فكانت معروفة في اوروبا منذ العصور القديمة . فقد كان عبور المحيط الهندي من سواحل افريقيا الشرقية الى آسيا معروفا من البحارة العرب والهنود منذ قرون .

ولم يكن « هنري الملاح وفاسو دي جاما والبوكرك » علماء مكتشفين ، وانما كانوا غزاة طامحين ، وقد كانت تصرفاتهم في البـلاد العربية والاسلامية تدل على ذلك ، وليست الحمـلات التي انطلقت من الاندلس (اسبانيـا) والبرتغال بعد تحررها من النفوذ الاسلامي العربي الا كردّ فعل لذلك ورغبة في الانتقام .

ما هي المفاهيم الرجعية في القرآن او في الاسلام ؟

هذه الكلمة جاءتنـا من اوروبا التي قامت على الدين الكنسي وقالت خلصونا منه اي خلصونا من الدين ، لأن رجال الكنيسة كانوا يقتلون كل رجل يأتي بنظرية علمية تخالف اساطيرهم الدينية امثال غاليلو الذي قال بحركة الارض .

هذه مفاهيم القرآن بين ايدينا فلنقرأ بعضها لنرى ما اذا كانت تقدمية او رجعية .

قال تعالى :

« وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً » (١) .

(١) لقمان ـ آية ١٩ .

حـاول ان تشعر انـك انسان متواضع تعيش مـع الآخرين بسلام ، لا تصعر خدك متكبرا ولا تدر وجهك عن الناس ، تشعر انك واحد من البشر ، ارجوك هـذا المقصود الانساني رجعي او تقدمي .

قال تعالى :

« إنَّ اللهَ يَأمُرُ بالعَدْلِ وَالأحْسَانِ وَإيتَاءِ ذِي القُرْبى وَيَنْهى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمنْكَرِ وَالبَغي يَعِظُكُمْ لَعلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ »[1] .

هل العدل مفهوم رجعي والاحسان الى الناس مفهوم رجعي ، وايتاء ذي القربى وصلة الارحام مفاهيم رجعية أم مفاهيم تقدمية ؟

وقال تعالى :

« وَلا تَسْتَوي الحسَنَةُ وَلا السَّيئةِ إدْفَعْ بالَّتي هِيَ أحْسَنُ »[2] .

حـاول ان لا تقابل الاساءة بمثلهـا قابلهـا بانسانية هذا المفهوم رجعي أم مفهوم تقدمي .

فأين توجد الرجعيـة في القرآن وفي الاسلام ، ونحن

---

(١) النحل ـ آية ٩١ .
(٢) فعلت ـ آية ٣٥ .

شبعنا من الدعاية في التقدمية الجديدة لم ير منها الناس الا الغزو والسحل والقتل والسجن والتعذيب والطبقية والاستعباد والاستعمار والاحتكار التلاعب بمقدرات الناس ٠

ولذا من الخطأ اعتبار هنري الملاح عالما ومكتشفا ، أو تصور فاسكو دي جاما على انه رحالة مخلص للعلم بينما هو كان رجل عنف ومن امثلة ذلك ما فعل في رحلته الثانية الى آسيا قبل وصوله الى شواطىء الهند حيث اتجه بمدافعه الثقيلة الى المراكب الاسلامية التي تحمل الحجاج من مكة فأحرقها واغرقها بعد ان نقل اموال الحجاج وامتعتهم الى اسطوله ، وبعد ان حظر على رجاله انقاذ الغرقى منهم وفيهم النساء والاطفال حتى هلكوا جميعا ٠

٢ ـ ومن الاخطاء القول بأن النهضة في العالم العربي انما كان مصدرها حملة نابليون وان العرب والمسلمين لم يستيقظوا من نومهم حتى ايقظهم الغرب ٠

وهو قول لا سند له تاريخي ولا علمي فان العالم الاسلامي والامة العربية قد استيقظت قبل الحملة الفرنسية بأمد طويل ، هذه النهضة التي ابتدأت في منتصف القرن الثامن عشر او حوالي ١٧٥٠ م ، وهذا يسبق وصول الحملة الفرنسية بأكثر من نصف قرن ويسبق الارساليات التبشيرية بمئة عام على الاقل ٠

٣ ــ العصور الوسطى :

يتردد على الالسنة تصوير العصر الاسلامي الزاهي بأنه هو من العصور الوسطى المظلمة ، ومن الحق ان يقال ان العصور الوسطى تاريخيا انما هي الفترة الواقعة بين سقوط روما في القرن الرابع المسيحي وبين عصر النهضة الاوروبية في القرن الخامس عشر ، هذه الفترة يطلق عليها الاوروبيون فترة العصور الوسطى المظلمة حيث سادت اوروبا حالة من اسوأ حالات الضعف والتأخر .

وهذه الفترة التي تسمى القرون الوسطى بالنسبة الى اوروبا هي منذ القرن السادس الميلادي في العالم الاسلامي هي فجر الاسلام وامتدادها هي امتداد الحضارة الاسلامية وقيام الدولة الاسلامية التي وصلت الى حدود الصين شرقا وحدود فرنسا غربا .

فاطلاق العصور الوسطى وتعميمه على كل العالم ، هذا اطلاق ظالم، فالعصور الوسطى المظلمة انما كانت بالنسبة الى الغرب وحده واما بالنسبة للهند والفرس والعرب ومصر والمغرب كله والاندلس مضيئة مشرقة وقد بينـــا هذا في موضوع العصور الوسطى والتطور الاسلامي .

٤ ــ رجال الدين كلمة غربية مستوردة يحاول بها كثير من الناس اطلاقهـــا على العلماء المتخصصين في دراسات العقائد والفقه والشريعة والتفسير ومـــا يرجع الى امور الدين ومن تكون دراساته مستمدة من المعاهد الاسلامية

كالنجف الاشرف ، ومكةوالازهر وغيرها ، مع العلم ان الاسلام لا يعرف طبقة معينة ولا يعترف بطبقة معينة يمكن ان تسمى رجال دين ، لها نظام خاص او حقوق معينة ، ولكن هناك علماء متخصصون في الدراسات الاسلامية .

٥ ـ ان نتائج مرحلة الضعف والتخلف في العالم الاسلامي السابقة لمرحلة اليقظة الحديثة وما ظهر فيها من نتائج غلب عليها طابع الجمود والتقليد ، لا يمكن ان تمثل بحال جوهر الفكر الاسلامي ، او يتخذ سندا لرمي الاسلام بالقصور والجمود والتخلف وخاصة في بعض المسائل كالجبر والتفويض وغيرهما من المسائل التي سادت مفهوم الصوفية ودخلت عن طريق الفلسفات القديمة كالهندية والفارسية والمجوسية واليونانية ، اذ جاءت تحمل فلسفات لا تلائم جوهر الاسلام كوحدة الوجود والحلول والاتحاد .

والواجب ان يحاكم الفكر الاسلامي الى اصوله الاولى المستقاة من الكتاب الكريموالسنة الشريفة الثابت صدورها عن الرسول والى انتاج اعلام الاسلام الرواد الاوائل ، ولا تحاكمالى انتاج فترة الضعف والجمود ، فالفكر الاسلامي في جوهره الاصلي ما زال مضيئا ايجابيا مؤثرا معطيا للامم المتخلفة دفعات التقدم والبناء والحيوية .

٦ ـ تأخر العرب والمسلمين مصدره الاسلام ، هذه الدعوة يرددها النفوذ الاستعماري واتباعه من دعاة الغرب وقد تلقى آذانا صاغية ، ولكنها حيل تعرض على منهاج

العلم والتاريخ يبدو زيفها واضحا •

والحق ان يقال ان تأخر العرب والمسلمين يرجع اساسا الى الانحراف عن مفهوم الاسلام ، ولو ان العالم الاسلامي ظل مرتبطا بمقومات الاسلام وقيمه الاساسية لم ينحرف عنها ، لما وقع في هذه الازمة •

٧ ــ ان الحملات الغربية على الدين ، انما كان المقصود بها دين الغرب أي الكنيسة ونقل هذا الى الدين الاسلامي هو نوع من التمويه ، لان الاسلام لم يكن فيه خلاف بين الدين والعلم، او مشكلة صراع بين الاخلاق والمجتمع، واما مفهوم دين الغرب فقد كونته ظروف تاريخية ، وطبيعة فهم الغرب للدين ، اضف الى ذلك الموروثات الوثنية اليونانية والرومانية •

٨ ــ هناك امور كثيرة تركت وطرحت ، وقد فهمت من خلال مقاييس الغرب وهي تخالف مقاييسنا ، اذ ان مقاييسه الدينية والتاريخية واللغوية والعقائدية مادية والدينية قائمة على الوثنية اليونانية والرومانية •

ومقاييسنا قائمة على ان الامور منهـا ما هو روحي ، ومنها ما هو مادي ، والانسان مزيج من الروح والمادة ، وان تاريخ اي امة وحدة كاملة متصلة الحلقات •

٩ ــ تقوم مقاييسنا على ان الانسان مكون من روح ومــادة ، وان الانسان جمــاع للروح والقلب والعقــل والجسد ، ولذلك جاءت رسالة الاسلام انسانية : فلا تغلب الجانب الروحي على المادي كالنصرانية ولا الجانب المادي على الروحي كاليهودية ٠

١٠ ــ هنــاك محاولــة للانتقاص فتردد عبارة العقائد الموروثة ، اذ ان العقائد الموروثة منها ما هو حق ومنها ما هو باطل ، اما في الفكر الاسلامي فعقائده الموروثة اصلها القرآن والسنة وما وافق حكم العقل وهذه لا سبيل الى التخلص منها ، امــا العقائد الباطلة الفاسدة كتلك التي حاربها الاسلام كالوثنية والاساطير والخرافات وعبادة الفرد وعبادة البطولة وانكار ترابط الدنيــا والآخرة او انكار البعث ٠

١١ ــ القيم ثابتة والعادات والتقاليد متغيرة ٠

فالقيم الاخلاقية كحسن الصدق والعدل وقبح الكذب والظلم وامثالها ثابتة لا تتغير بتغير المجتمعات وهي ثابتــة ثبوت الانسان نفسه ٠

واما العادات والتقاليد فهي تتغير، بتغير المجتمعات بل قد تتغير في المجتمع الواحد من وقت لآخر ٠

١٢ ــ الغرائز البشرية والوسائل : فالغرائز لا تتغير بل

هي ثابتة بثبات الانسان فالغريزة الجنسية وغريزة الحب وغريزة الغضب وغريزة التملك وغيرها من الغرائز كانت موجودة عند الانسان الاول ولا تزال موجودة عند الانسان اليوم بفضل وجودها عند الانسان الاول بدون زيادة ولا نقصان .

واما وسائل الغرائز التي تشبع الغرائز فهي التي تتطور وتتبدل فالانسان سابقا كان يشرب الماء عكرا واصبح يشربه مثلجا وكان سابقا يأكل اللحم نيئـا فأصبح يأكله مشويا ناضجا ، وكان سابقا يلبس جلد الحيوانات ، فأصبح يلبس الديبـاج والحرير وكان سابقا يسكن المغارات والكهوف فأصبح يسكن البيوت والقصور .

فحاجة الانسان للأكل ، وحاجته للباس وحاجته للمأمن والمسكن قديمة بقدم وجوده منذ اللحظة الاولى وقد يسعى الانسان لاشباع غرائزه كلها ومنها هذه وبالتدرج تطورت وسائل اشباع غرائزه حتى صارت بالشكل التي عليه اليوم من التقدم والتطور .

١٣ ـ مقاييس العلوم تختلف عن مقاييس الانسانيات والنفوس .

فمقاييس العلوم ماديـة وهي مستمدة مـن التجربـة والاختبار ، وهذه المقاييس لا تستطيع ان تخضع انسانية

الانسان والنفوس والاخلاق وامثالها الى نتائجها •

ومقاييس انسانية الانسان والنفوس والاخلاق معنوية وادبية فهي لا تخضع لمقاييس الماديات •

فاذا حاولنا تطبيق مقاييس العلوم على مقاييس النفوس والاخلاق ، اخطأنا ولم تكن هناك نتيجة صحيحة وفسدت الغاية •

الاحتراف بالقيم والمفاهيم
أو
المتاجرة بالقيم والمفاهيم

الاحتراف بالقيم والمفاهيم

في الحياة قيم ، وقيم الحياة هي المعاني الخـالدة التي تقدر لذاتها في هذا الوجود الانساني هي الحقائق التي لا تتغير بنظرة الفرد او الجماعة ، وقوتها العقل الانساني العام وجعلها غايات او اهدافا ، ولم يجعلها العقل وسائل لغايات او اهداف اخرى .

فالمعرفة ، او السياسة او الحكم ، والدين ، والوطنية ؛ مثلا من قيم الحياة ، والوضع الصحيح ازاء القيم كلها لا تستخدم لغايات شخصية وانمـا تكون اهدافا وغايات لا وسائل .

القيم اشبه بالمثل ، من عرفها وعمل بها ابتعد ان يكون شخصية تتحكم فيه ميوله الشخصية الضيقة ، مبدأ كأنـه الانسان العام ، يولد كأنه رسالة للنـاس جميعا لا تحده الفروق الفردية .

والقيم ليست اهواء تتجرد وتتغير ، وليست مقدمـات

يسلم بعضها للتالي بعده ، فالقيم غايات ونهايات واهداف اختبرت ، ولذا هي باقية ، ولذا هي تمثل الامر الذي تلتقي فيه مصالح الافراد والاجيال والشعوب •

١ ـ فالفيلسوف ليس هو صاحب المعرفة بل هو الذي يعشق المعرفة ، واذا عشقها عاش من اجلها وفي سبيلها ، وعند ذلك تحرى الحقيقة وكشف عنها • وبعبارة اوضح قصد ليعيد الى المعرفة عن قيم الوجود ، وهو واصل اليها بلا ريب ، لانه في منأى عن عوامل الانحراف في ادراكها والمصالح العامة ، اذ ان عوامل الانحراف والادراك تربط العقل الانساني في عملية الادراك والتفكير بالغايات القريبة، وهي الغايات الشخصية والفردية او هي التي تسمى بالاهواء والشهوات •

والفيلسوف لهذا لا يمثل عاشق المعرفة فحسب بل يصور مع ذلك في سلوكه الانسان العادل او الانسان العام فليس العادل الا الذي وزن وقدر وعدل في وزنه وتقديره ، وهذا شأن الانسان العام الذي لم يرع في احكامه الا الاعتبارات العامة دون ان يتأثر بالجانب الشخصي في احكامه وتقديراته •

٢ ـ ورجل الدين او الرجل المتدين ليس هو الذي يقيم الشعائر صورة وشكلا وطقوسا كأجسام مجففة او مجوفة

او كأجساد بلا ارواح كما نرى كثيرا مما لا تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر . وانما رجـل الدين هو المؤمن بما ارتضاه لنفسه دينا او هو الذي يطابق قوله ما تنطوي عليه سريرته وينعقد عليه قلبه ويطابق عمله قوله وفعله كلامه ؛ وعندئذ يكون رجل دين حقيقة ومتدينا واقعا ، وعندئـذ يكون الدين احد قيم الحياة وان الدين غاية له وانه مطلوب لذاته في هذا الوجود، وليس وسيلة للدروشة والبهللة واقامة الطقوس الشكلية .

ان سلوك الانسان ، أي انسان ، يدل على مدى ايمانه بالدين وتقويم الدين له وتأثيره به ، ذلك بسيطرة طابـع الايثار على اعمالـه في دائرة المشاركة للغير ، حيث كلما ابتعدت المنافـع الفردية والغـايات الخاصة ، في تصرفات المتدين ، وحتمت صلته بالدين ، على انه صاحب ايمان به وعلى انه معتبر للدين انه غاية له ، وليس وسيلة وانه اتخذ الدين مثلا اعلى له لا منتجعا للنفع الشخصي العاجل .

والانسان الرسالي او صاحب الرسالة الدينية ، قد ادرك ـ بوجهة نظر شاملة ـ قيمة الدين الذاتية وقد آمن هو بهذه القيمة وجعلها في نفسه هدفا وغاية عليا ليس بعدهـا غاية . وايمانه بدينه على هذا النحو ينعكس من جديد على تصرفاته، فهو يلغي اعتبار المنافع الشخصية والقرابة والاسرة ومخلفات الماضي ، مما لم تزل تحرص عليه القبيلة وتكافح

من اجل بقائه ، ويتحمل مرارة الخصومة ، بل قد يستعذب الآلام ، كل ذلك في سبيل التبشير بدعوته الدينية• فيؤسس المشاريع ويسافر ويعلو الجبال ويهبط الاودية ويتحمل النقد الكثير ويستعذبه من اجل دينه •

٣ ـ والسياسي ، ليس هو من يفهم اصول الحكم ويلم بقواعد السياسة النظرية ، بـل السياسي هو الذي يرى تدبير شؤون الافراد والمصالح العامة هدفا ذا قيمة ذاتية لا وسيلة لغاية شخصية ضيقة •

السياسي هو من يرى لذته في ان ترعى امور النـاس بالعدل ، ويحقق لهم حياة مطمئنة ، والسياسي هو من تسيطر عليه روح الجماعة ، وبالتالي تهون عليـه مظاهره الفردية وعلائقه الشخصية •

والشعب الذي يرشح السياسي في تمثيله ، لم يكن يقلده الدعاء والزيارة ولم يقلده فيأخذ احكامه الدينية منه ولم يكن ينتظر منه الشفاعة، انما قلده المهام الدنيوية التي تعود للشعب في الدوائر الحكومية فلذا رشحه وجلس هو على الكرسي باسم الشعب ليطـالب بحقوقه المشروعة مـن الضمانات الصحيـة والاقتصادية والتربويـة والمواصلات والحماية الوطنية وغيرها من الشؤون الدينية •

والحكومة الصالحة هي التي تكون اذن وليدة الشعور

بالقيمة الذاتية بقيمة الحكم ، وامارتها كذلك ان يكون نفعها للكل لا لطائفة معينة ولا لافراد معينين ٠

وهكذا بقية قيم الحياة هي امور ومعان تقصد لذاتها ، وليست وسائل تستخدم لاهداف شخصية ولاهداف قريبة لا تقف عنده النفس ، بل تطلب مزيدا منه وان تتوسل به الى ما بعده ، اما المطلوب الذي يقوم لذاته ويكون غاية وهدفا بنفسه فانه ليس وسيلة وطريقا للغير ، وهذا ما يعبر عنه بالقيم ، وهو آخر مطلوب في الوجود ، وكان ابعد ما يكون عن اهواء النفس وشهواتها ، وبالتالي كانت منطوية على معنى الخلود في الوجود الانساني ٠

هناك قيم في الحياة ، وهناك مدركون وعاملون بها ، وهنـــاك محترفون بها ، والذي يحترف بقيمة مـــن القيم كالدين والسياسة والعلم ، فهو يسعى باسم المعاني الكريمه الباقية لتحصيل شهوات رخيصة عاجلة غير دائمة لاشباع نهم نفسه ، وليست المقابلة بين باق وزائل فحسب ، بل بين كثرة تضر وقلة تنفع ٠

رجل ينتسب الى المعرفة والثقافـــة لا هو باحث عـــن الحقيقة ليدركها ، ولا هو متصرف طبق الحقيقة لانه لم يدركها ، فمعرفته وثقافته اقرب الى الجهل وسلوكه اقرب الى الانحراف ، وخطره ليس في جهله وسلوكه الفردي ٠

بل ان سلوكه لدى الناس عنوان المعرفة والثقافة والاستقامة يتبعون جهله باسم العلم ويتبعون سلوكه باسم الاخلاق والثقافة .

ورجل يتصل بالدين فيحترف به ، لا هو صاحب هداية ولا حامل دعوة ، لانه يصرف ما لله ولرسوله في سبيل الشيطان ، وتحريف الكلم عن مواضعه وتبديله ، وخطة المحترف بالدين تتمثل في اعتباره رجلا امينا يعتقدون انه رسم طريق الله ، فان عملوا بمقتضى سلوكه فعملهم في واقع امره ليس في سبيل الله ، واذا لم يكن في سبيل الله فليس في صالحهم ، لانه ما اراد الله لا بد ان يكون لصالح الناس .

وبقدر ما يبتعد المحترف بالدين في تقويمه الدين لذاته بقدر ما يسيء الى اتباعه من جهتين : من جهة ابعادهم عن الهداية والحق في ذاته ومن جهة بقائهم في تعصب على هذا الانحراف بدافع انهم ذوو عقيدة .

واذا غلبت الفردية في امة كثر المحترفون والانانيون والمتحزبون ، وعندئذ يكون التفكك والشذوذ عن الاستقامة وعن السبيل السوي .

ويمكن لنا القول : بأن رسل الله انتخاب الله ، فلذا

كانوا قادة الهيين ، وهم من اجل هذا كانوا المثل الاعلى للانسان .

والرسل هم هداة الجماعة الانسانية الى الطريق الاقوم. وتلك هي مهمة القادة الالهيين الذين بعثهم الله لهداية الانسان وانقاذه وارشاده الى ما فيه سعادته في حياته الدنيا وحياته الاخرى .

ارادة التغيير والتطوير

إرادة التغيير والتطوير

قال تعالى :

« لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ »[1] .

ان هذه الآية تشير الى انسانية التغيير ، وربانية التقدير ، وهما قضيتان مصيريتان ، احداهما بيد الانسان ، والاخرى بيد الملك الديان .

فمسؤولية التغيير في الانظمة ونماذجها وفي المجتمعات واشكالها ، وفي الحياة وانماطها ــ بعد توفيق الله وهديه ــ

---

(١) سورة الرعد آية ١٢ .

ملقاة على عاتق الانسان وحده ، فلا قوة غير الله خارجة عن نطاق ذاته يمكنها ان تغير من حاله او تبدل من ظروفه .

فالتغيير من جهل الى علم (معرفة) ومن ضعف الى قوة ومن فقر الى غنى ومن مرض الى صحة ومن فرقة الى اتحاد ومن فوضى الى نظام ومن خوف الى امان ومن خمول وكسل الى عزيمة ونشاط ، ومن البطالة الى العمل ، ومن شك وحيرة الى يقين وجزم ومن عقيدة فاسدة الى عقيدة صحيحة ومن باطل الى حق ومن ضلال الى هدى ومن كفر الى ايمان .

فهو يعقبهم بالحفاظ من امره لمراقبة ما يحدثه البشر من تغيير بأنفسهم واحوالهم ، فيرتب الله عليه تصرفاتهم ، فلا يغير الله مكانة او مهانة الا ان يغير الناس من مشاعرهم واعمالهم وواقع حياتهم .

فيغير الله ما بهم وفق ما صارت اليه نفوسهم واعمالهم ـ وان كان الله يعلم ما سيكون من قبل ان يكون ـ ولكن ما يقع عليهم يترتب على ما يكون منهم ويجيء لاحقا له في الزمان بالقياس اليهم .

وانها لحقيقة تلقى على البشر ، تبعة ثقيلة ، فقد مضت مشيئة الله وجرت بها سنته ، ان تترتب مشيئة الله بالبشر

على تصرف هؤلاء البشر ، وان تنفذ فيه سنته بنـاء على تعرفهم لهذه السنة بسلوكهم ، والنص في هذا صريح لا يحتمل التأويل ، وهو يحمل كذلك الى جانب التبعيـة دليل التكريم لهذا المخلوق الذي اقتضت مشيئة الله ان يكون هو اداة التنفيذ لمشيئة الله تعالى فيه .

قال تعالى :

« ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ ، عَلِيمٌ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ »[1].

انه من جانب آخر يقرر عدل الله ورحمته بالعباد فلا يسلبهم نعمة وهبها اياهم الا بعد ان يغيروا نواياهم ويبدلوا سلوكهم ، ويستحقوا ان يغيروا ما بهم .

ومن الجانب الآخر يكرم هذا المخلوق (الانسان) اكبر

---

(١) الانفال ـ آية ٥٤ ـ ٥٥ .

تكريم حتى ليجعل مشيئة الله في الانسان تتم وتنفذ عن طريق هذا الانسان ذاته ، ويجعل محور التغيير في حياة الناس هو قلوبهم ونواياهم وسلوكهم واعمالهم .

وانه لتكريم عظيم لهذا المخلوق ، والا فما هو هذا الكائن حتى يعلق الخالق نفاذ مشيئته فيه على نشاطه الذي يبديه او يخفيه ؟ وهو في الوقت ذاته تبعة عظيمة وثقل كبير .

ففي هذا الكائن مصيره ، وهو يملك ان يستبقي نعمة الله عليه اذا هو عرفه واتجه اليه ، كما يملك زوال هذه النعمة اذا انحرفت نواياه فانحرفت خطاه ، تلك سنة الله الجارية في عباده « وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً »[1] .

فالعباد هم موضع لارادة الله ومحل لمشيئة الله ، واقوالهم وافعالهم الصالحة هي تنفيذ لارادة الله ، لان الله سبحانه اراد من عباده ان يعمروا الكون بعبادته وطاعته ، وان يتعاونوا على البر والتقوى .

فالتغيير في الحياة لا يخضع للصدفة او للغيب ، بل يخضع لواقع الانسان الذي يصنع عملية التغيير من خلال فكره وممارساته في الحياة .

فالظلم والطغيان والفساد والحرمان والفقر والمرض

---

(١) الاحزاب ـ آية ٦٢ .

والجهل والاحتكار والتحكم في مصالح العباد وامثال ذلك لم تكن تنزل من السماء ، ولم تكن قدرا مقدورا وفرضا محتوما على العباد دون ارادتهم ، بل هذه وامثالها من الشرور والحرمان هو من صنع الانسان الناتج عن سلوكه وافعاله واقواله . فعلى الانسان نفسه ان يغير ما صنعه لنفسه من العمل المشئوم والصنع الباطل والسلوك الفاسد .

فالعالم عندما يكون عمله مطابقا لعلمه ، وافعاله منسجمة مع اقواله يكون منفذا لارادة الله ومطبقا لاوامر الله تعالى .

والسياسي عندما يسوس بما يريده الله يكون منفذا لارادة الله ومطبقا لاوامر الله تعالى .

والعامل عندما يتقن عمله يكون منفذا لارادة الله ، ومطبقا لاوامر الله تعالى .

والمعلم عندما يحسن التعليم والتوجيه والتلقين ولا يشوه المفاهيم على تلامذته يكون منفذا لارادة الله ومطبقا لاوامر الله تعالى .

والمرأة عندما تطيع زوجها اذا امرها وتحفظه اذا غاب عنها في نفسها وما له تكون منفذة لارادة الله ومطبقة لاوامر الله تعالى .

والرجل عندما يحسن ادارة بيته ورعاية اهله ومن له

عليهم ولايـة يكون منفذا لارادة الله ومطبقا لاوامر الله تعالى .

فعلى البشر ان ينطلقوا بانفسهم من تلقاء انفسهم وان يتحركوا من داخلهم تحركا ايجابيا ذاتيا كفيلا باحداث التغيير الذي ينشدونه ، وتهيئة المصير الذي يصبون .

ولكي يحفز القرآن الناس افرادا وجماعات الى استخدام طاقاتهم الكبيرة على التحرك الذاتي الداخلي العميق صور لهم الكون كله في حركة مستمرة بلا توقف ولا فتور حتى الجبال تمر مرّ السحاب وحتى الارض تهتز وتمور وحتى الشمس تجري وتدور ، وحتى الرياح تعصف وتثير ، وحتى الرعد يسبح بحمد ربه وحتى الشجر ينحني ويسجد .

قال تعالى :

« وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ »[1] .

وان من شيء الا يطلق في تحركه نحو مبدعه نحو الله الخلاق حتى الانغام والالحان .

وعن الجبال قال تعالى :

---

(١) الاسراء ــ آية ٤٥ .

« وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ »[1] .

وعن الارض قال تعالى :

« وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ »[2] .

وعن الشمس والقمر والليل والنهار قال تعالى :

« وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ، لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ

---

(1) النمل ـ آية ٨٩ .

(2) الحج ـ آية ٩ .

يَسْبَحُونَ »[1].

وعن الرياح قال تعالى :

« وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً ، فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً »[2].

وقال تعالى :

« اللهُ الَّذي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ في السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ »[3].

وعن الرعد قال تعالى :

« وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ »[4]

وعن النبات والشجر قال تعالى :

---

(١) يس ـ آية ٣٩ ـ ٤٤ ـ ٤١ .

(٢) المرسلات ـ آية ٢ .

(٣) الروم ـ آية ٤٩ .

(٤) الرعد ـ آية ١٤ .

« وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ »[1] .

النجم النبات الناجم على الارض لا ساق له ولا جذع له .

وعن تحرك الكون له في كل لحظة نحو خالقه ومبدعه قال تبارك وتعالى :

« وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَنْ في السَّماوَاتِ والأَرْضَ طَوعاً وكَرْهاً ، وَظِلالُهُمْ بِالغُدُوِّ وَالآصالِ »[2] .

---

(1) الرحمن ـ آية ٧ .

(2) الرعد ـ آية ١٦ .

ولكن بين حركة الجماد وحركة الانسان فرقاً كبيراً

فأما الجماد فحركته سلبية لا يد له فيها ولا قدرة له عليها ، ليس له عقل فيديرها وينسقها ويضاعفها ويسرعها ، وليس له شعور فيتفنن فيها ويجملها ويربيها ، وانما هو فيها خاضع لتلقي آثار الاشعاعات والكهارب المنبثة بين عناصرها من المشارق والمغارب « سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً »[1] .

واما حركة الانسان فايجابية من نفسه لنفسه ومن نفسه لغيره ولكل شيء من حوله ، هي من احساسه لشعوره ، ومن شعوره لضميره ، ومن ضميره لارادته ، ومن ارادته لعقله ومن عقله لعلمه ، ومن علمه لقدرته ، ومن قدرته لانتاجه ، ومن انتاجه لتطويره طاقات هذا الكون تطويرا كاملا ، يشعر فيه كأنه اكرم خلق الله على الله تعالى .

---

(١) الاحزاب ـ آية ٦٢ .

قال تعالى : « وَلقد كرّمنا بني آدمَ وحملناهم في البرِّ والبحرِ ورزقناهم من الطيّباتِ وفضّلناهم على كثيرٍ ممّن خلقنا تفضيلا »[1] .

حركة الانسان الايجابية من نفسه لنفسه ، تغييره من نفسه ما لا يريده ان يبقى في نفسه وفيها قال تعالى:

« وَنَفسٍ وَمَا سوّاها ، فألهمها فجورَها وتقواها قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها »[2] .

وعن حركة الانسان من نفسه لغيره لكل شيء سواه ، للكون للحياة للمجتمع للمادة للطاقة للاشعاع قال تبارك وتعالى :

« وسخّرَ لكم ما في السّموات وما في الأرض جميعاً منه »[3] .

ولو ان الانسان العاقل منذ اكتشافه طاقته الفعلية اراد ان يحصي مجرد احصاء ، الى اين تبلغ طاقاته وقدراته في

---

(1) الاسراء ـ آية ٧١ .
(2) الشمس ـ آية ٨ ـ ٩ ـ ١٠ ـ ١١ .
(3) الجاثية ـ آية ١٤ .

الكون ، في سمائه وارضه ، ومعدنه ، وحيوانه ونباته ، لما استطاع الى ذلك سبيلا •

قال تعالى :

« وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ دَائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ » [1] .

الا وان هذه الحركة الانسانية الايجابية الذاتية التلقائية الداخلية ، التي تمكنه من التغيير والتنمية والتطور فيما شاء، حيث شاء،متى شاء، اين شاء لتلقى عليه التبعات الثقال، تبعات الحفاظ على الحق والخير والجمال ، وتبعات التغيير للباطل للفساد للضلال تبعات العلم لا الجهل ، تبعات البناء لا التخريب •

تلك هي قدرة الانسان في الكون الكبير على احداث التغيير •

---

(1) ابراهيم ـ آية ٣٣ ـ ٣٤ ـ ٣٥ .

تلك هي اذن بمقتضى الآية انسانية التغيير ، تريدون ان نحصيهـا ، كم غيركم فكروا وعملوا وتابعوا البشر ، فاذا طوروا كيف طوروا .

فهم دائمـا يلتمسون الافضـل ولا يمكن ان يرضوا بالفساد ، بالباطل ، بالقبيح .

وانما اتباع الشهوات ، والبطر والفساد ، والآثام هي دفعتهم نحو الفساد والباطل والقبيح كما قال تعالى :

« وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ » [1] .

فها هو ذا انسان قرن العشرين ، برغم كل ما انجزه من اختراعات ، يريد ان ينسى آثار القوة الحقيقية الفاعلة فيه، يستمر به الغرور فيتوهم ان بوسعه ان يقارن ببلاهة عجيبة بين ارادته المحدودة المقيـدة باغـلال الحواس والمشاعر المعرضة للضعف والوهن والفناء ، وبين قدرة الله المطلقة يفعل بها ما يشاء ، وبين ارادة الله التي لا تحدها الحدود ،

---

(١) الشورى ـ آية ٢٨ .

واذا هو ينسى في غمرة غفلته مدى طاقته ، فيتعدى حده ويعرض نفسه للفناء والدمار من اجل هذا ضمنت الآية نفسها من سورة الرعد (١) في سياقها عن انسانية التغيير ، سياقا آخر عن ربانية التقدير في قوله تعالى :

« وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ » (٢) .

كم نحن بحاجة ان نتأمل في هذه الآية الجامعة في سياق واحد بين ابراز قدرتنا على التغيير والتطوير بدون غرور ، وبين تطلعاتنا الى ربانية التقدير وهي تشع على قلوبنا بالهدى والنور .

نحن هنا في لبنان وفي الشرق عامة عطاشا الى التنسيق بين قيم العلم تمثلها انسانية التغيير ـ قيم الايمان قيم الدين ـ تمثلها ربانية التقدير .

ونحن في ظمأ الى هذا التنسيق بين قيم العلم وقيم الايمان ، لئلا يتحول العلم كفرا والحادا ، ولئلا يتحول الدين ، كما تحول ـ مع الاسف ـ الى طائفية ومذهبية

---

(١) «اي ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم» .

(٢) الرعد ـ آية ١٢ .

وفسادا ، فلقد تحول الدين الى طائفية ومذهبية ، ولقـد تحولت الطائفية والمذهبية حقدا دفينا بغيضا في النفوس .

فالاسلام الذي جاء لسعادة الانسان وازالـة الصنمية الخشبية والحجرية من المجتمع المسلم فلا ينبغي ان نعيدها صنمية بشرية مخلوقة من لحم ودم تعبد من دون الله وذلك بطاعة الزعامات البعيدة عن الله ، التي تحلل الحرام ، وتحرم الحلال ، قال الامام الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعـالى :

إتـّخـَذ ُوا أحـْبَارَ ُهمْ وَرُهْبـَانـَهُمْ أرْبَاباً مِنْ ُدون اللهَ » [1] .

قال : « والله ما عبدوهم ، ولكنهم حللوا لهم الحرام وحرموا لهم الحلال فأطاعوهم وبذلك يكونوا عبدوهم » .

وينبغي لنا معشر العباد ان لا تنتظر ان ينزل علينا جنود من السماء لتغير ما بنا من فساد وتنتصر لقضايانا العادلة وتزيل من بيننا الشرور والحرمان والفساد والطغيان ، بل العباد هم جنود قضاياهم المصيرية ومطالبهم العادلة . وما على العباد الا ان يلتفوا حول قياداتهم الحكيمة مستنفرين كل طاقاتهم من اجل تحصيل حقوقهم واعادة كرامتهم وازالة الحرمان من بينهم .

---

(1) التوبة ـ آية ٣٢ .

وهل نحن اعز على الله تعالى من انبيائه ورسله واوليائه؟ ألم يدعوا ويجاهدوا وينفوا ويعذبوا في الارض ويقتلون في سبيل الحق ؟

أليس لو اراد الله من الناس ان يكونوا مؤمنين بغير دعـوة الانبيـاء وارسال الرسل لخلقهـم مؤمنـين لا يقدرون عـلى الكفر ، ولكن اراد منهم الايمـان بملىء اختيارهم وارادتهم وبعث الانبياء والرسل اقامة للحجة ؟

أليس لو اراد الله ان يطعم الناس بغير سعي وعمل ، كما اطعم بني اسرائيل المن والسلوى زمن كليموس ، لما كلف الناس بالسعي والعمل لتحصيل الرزق وطلب المعيشة ؟

وهل نريد من الله تبارك وتعالى ــ ان يجري لنا المعجز خلافا لسنن الحياة ، وقد ابى ان يجري الامور الا باسبابها ومسبباتها ــ ان يحصل لنا حقوقنا ويزيل الشرور والحرمان من بيننا بدون ان نعمل نحن لتغييرها ــ وقـد ابى الله سبحانه ذلك . .

ان التحول والتغيير من الضعة الى الرفعة ومن الرذيلة الى الفضيلة ، ومن وضع اجتماعي ادنى الى وضع اجتماعي ارفع تتوقف على ارادة الانسان ومشيئته وحريته وتنويره بالمبادىء العـامة التي ترسم اطار الانسانيـة ، فالتغيير والتطوير عملية بشرية .

فالله سبحانه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فالله سبحانه وتعالى لا يغير اوضاعنا الفاسدة الى اوضاع

صالحة ولا يزيل عنا الظلم الى عدالة ، والحرمان الى عطاء والاثرة والاجحاف الى مساواة ، والجبن الى شجاعة والضعف الى قوة والفقر الى غنى ، والكسل الى عمل والخمول والخناعة الى نشاط وجد والسكوت عن المطالبة بالحق الى المطالبة بالحق والقعود عن المطالبة بالحق الى المطالبة بالحق .

وعندما يغير الناس اوضاعهم الفاسدة الى اوضاع صالحة يغير الله معهم ويؤيدهم وينصرهم، ويتغير الحرمان الى عطاء والاثرة والاجحاف الى ايثار وعطاء ، والظلم الى عدالة ومساواة ، ولكن ذلك موقوف على مشيئة العباد انفسهم .

وكم شرع الاسلام من شريعة للتغيير فصيام شهر رمضان منطلقا كبيرا للتغيير فيما اعتاده الانسان من مأكل ومشرب وعادات واخلاق وتحويل الكثير من اعمال النهار الى ليل .

وكذلك شرع الاسلام فريضة الحج ، نحن في ايام الحج فان الحاج عندما يحرم يجتنب محرمات الاحرام وهي تقرب من الثلاثين محرما وتسمى متروك الاحرام وكم في ذلك من تغيير للعادات التي الفها الانسان الحاج .

واذا كان التغيير من صنع الانسان فعليه ان يعمل على

استمراره ويستلهم معاني التغيير من شهر رمضان وحج البيت الحرام ويأخذ من ذلك دروسا في التغيير لنفسه ومجتمعه .

فالاسلام له مفاهيم وفكر عن الخالق وعن الحياة والكون والانسان وعن علاقتها جميعا في الحياة الدنيا وفيما بعدها ، فلا بد من تغيير فكر الانسان الحاضر تغييرا اساسيا شاملا وايجاد فكر يتلاءم مع الاسلام لينهض الانسان بما عنده من فكر ومفاهيم .

والانسان يغير ويكيف سلوكه في الحياة بحسب مفاهيمه عنها ، فمفاهيم الانسان عن شخص يحبه تكيف سلوكه عنه وهي غير مفاهيمه عن شخص يبغضه وعلى خلاف سلوكه مع شخص لا يعرفه ولا يوجد لديه أي مفهوم عنه ، فالسلوك الانساني مربوط بمفاهيم الانسان . وعندما نريد ان نغير سلوك الانسان المنخفض ونجعله سلوكا راقيا لا بد ان نغير مفهومه أولاً « إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حتَّى يُغيِّروا مَا بِأنْفُسِهِمْ »[1] .

ونعني بارادة التغيير هي ان تتناول عمق الاشياء وليس سطحها ، واسسها وليس ظاهرها ، واسبابها وليس نتائجها ، فارادة التغيير ينبغي ان تعالج باطن الاشياء وليس ظاهرها .

وارادة التغيير كما تكون على مستوى الفرد تكون على

---

(١) الرعد ــ آية ١٣ .

مستوى الاسرة ومستوى المجتمع ومستوى الدولة وعلى مستوى الامة ، والتغيير على مستوى الامة ، كما حدث للامـــة العربية في ١٠ رمضان سنـــة ١٣٩٣ المصادف ٦/١٠/١٩٧٣ اذ ان الامة كانت تعاني قبل ستة تشرين انهزامية وشعورا بالضعف ، ولكن عندما حدث تصحيح على مستوى الامة تغير الوضع العربي من الشعور بالروح الانهزامية الى الشعور بالقوة والشعور بالانتصار .

وارادة التغيير تعني الانتقال من نظام الافكار الجامدة المنعزلة الى نظام الانفتاح الفكري الذي كان عليه لقـــاء الانظمة العربية المتعارضة بعد حرب رمضان بغية تحقيق المصلحة العربية العليا ، بل على المستوى الذي كان عليه لقاء الشرق والغرب بغية تحقيق مصلحة الانسان .

ان ارادة التغيير تعني عندنا الانتقال من نظام التسلط الذي تركه الانتداب وعهود الاقطاع الى نظام المساواة .

وارادة التغيير تعني عندنا الانتقال من نظام الاتكالية الى نظام المسئولية الشخصية .

ونعني بارادة التغيير بالنسبة لنا معشر العلماء ، هي ان تتحول مـــن اساليب الدعوة الفردية الى اسلوب العمل الجماعي في خدمة الاسلام والمسلمين . وينبغي ان نوظف علم الخدمـــة الاجتماعية كوسيلة مـــن وسائل الدعوة ،

فأصوات الدعاة لم تعـد مسموعة وسط صراخ المتعبين والمحرومين وانين المرضى ، ولقد تراكمت مشاكل الفقراء والمحرومين حتى اصبحت اعلى من قباب المعابد وارتفعت اصوات المظلومين في المجتمعات حتى غدت اعلى من اصوات المؤذنين وهي ترتفع من فوق مآذن المساجد .

ونعني بارادة التغيير هي ان نسعى لتلبية الحاجات البدنية لكي نهيء الاجواء للاخرين للتفكير بالنواحي الروحية ، حيث ان جماهير المحرومين والجائعين والمتعبين تحت وطأة الظلم الاجتماعي لم يعودوا يتوجهوا للدعوة الروحية التي يطلقها دعاة المنابر . ذلك لان الجائع ينشغل بسماع صوت معدته الخاوية عن الاصوات الاخرى .

ونعني بارادة التغيير هي التحرك الاجتماعي بين صفوف المحرومين والمتعبين والمظلومين في المناطق المحرومة من لبنان وبخاصة الجنوب لتحقيق الحاجات الضرورية لجميع المحرومين من المواطنين ، حيث ان الفقر والمرض والجهل كلها امراض اجتماعية تفتك بالشعوب .

نحن هنا في لبنان وفي الشرق عامة عطاشا الى التنسيق بين قيم العلم تمثلها انسانية التغيير وقيم الايمان قيم الدين تمثلها ربانية التقدير التي جمعتها الآية من صورة الرعد المذكورة سابقا ص (١١٤) .

نحن في ظمأ الى هذا التنسيق بين قيم العلم وقيم الايمان، لئلا يتحول العلم كفرا والحادا ولئلا يتحول الدين كما تحول ـ مع الاسف ـ طائفية ومذهبية وافسادا ، فلقد تحول الدين الى طائفية مذهبية ، ولقد تحولت الطائفية والمذهبية حقدا دفينا بغيضا في النفوس •

اننا نعلنها صريحة لا لبس فيها ولا غموض ، اننا نحارب الطائفية والمذهبية المتحيزة ، ان في رأس العلل والآفات التي نريد ان نغيرها ـ وسنغيرها باذن الله ـ هو نظام الطائفية والمذهبية السياسية المتحيزة الذي يعطي امتيازات طائفية ومذهبية لمواطنين دون آخرين •

وما دمنا نتكلم عن التغيير الاخلاقي والاجتماعي فلنتساءل :

أولاً ـ لماذا لم يغير لبنان بعد من نظامه الذي ألزم به نفسه منذ عهد الانتداب وحتى الآن •

اني احببت ان اتكلم عن النظام السياسي في لبنان لقناعتنا بأن هذا النظام اصبح سلبيا ينعكس على العمل الروحي الذي نمارسه كعلماء دين فيعيقه •

ان هذا القناعة تجعلنا اليوم شديدي الحرص على بسط

افكارنا بهذا الصدد في حدود ما نظن بأنه يرضي الله تعالى وتحقيق الصالح العام •

ثانياً ـ ماذا اوجد هذا النظام غير الجرائم والرشاوى والفضائح حتى اصبح المرء يتساءل كيف يمكن لبلد هو بحجم مدينة يستوعب مصالح قارة •

ثالثاً ماذا اوجد هذا النظام غير الميليشيات الحزبية والاعتداء على الآمنين في فترات مختلفة •

رابعاً ـ ماذا اوجد هذا النظام غير تعقيد المطالب كاهمال الدفاع عن لبنان وحدوده ومواطنيه وارضه واجوائه ومياهه ، وكأن الجهاز العسكري في لبنان انشىء فقط لحماية الحكم والحاكمين وليس لحماية الوطن والمواطنين والامن يعني هتك اسرائيل لارض لبنان ومياهه واجوائه وقتلها الابرياء والآمنين من المدنيين فتدخل لبنان وتخرج منه وتدمر وتسلب وتخطف ولا معترض يعترضها •

خامساً ـ ماذا اوجد هذا النظام غير رؤوس في كل طائفة ، وكل واحد منهم يدعي حق الوصاية وانه رأس الطائفة وانه الوصي والولي عليها وانه المتحدث الرسمي باسمها •

سادساً ـ ماذا اوجد هذا النظام غير التمييز الطائفي

وعدم انصاف المحرومين وعدم تحقيق المشاركة على كل صعيد وعدم السماح بتجنيس المسلمين المكتومين واهمال مناطق الجنوب والبقاع والشمال •

ان مساوىء هذا النظام اصراره على الجمع بين الحرية والطائفية في آن واحد فوقع في تناقض لان الحرية ترفض الطائفية والطائفية ترفض الحرية ، اذ لا طائفية مع الحرية ولا حرية مع الطائفية •

وبفعل هذا التناقض مسخت الطائفية وشوهت الحرية ولم يبق للبنان منهما الا اسوأ ما في الطائفية واسوأ ما في الحرية على السواء •

ان المنتفعين بالطائفية هم وحدهم الذين يتعمدون باستمرار الربط بين الحرية والطائفية حتى يتسنى لهم الاحتجاج بحماية الحرية عندما يكون الغرض حماية مكاسبهم الطائفية • انهم يلجأون الى المغالطة بالدفاع عن الحرية لحماية الطائفية ، وبالدفاع عن الطائفية لحماية الحرية ويتذرعون باحترام الدين حتى يتسنى لهم طعن الحرية والدين فقط •

لقد اصبح من الواجب ان نوضح ان الذين يأتون باسم هذا النظام المشوه لا يمكن الا ان يعملوا على تدعيمه

ويقاوموا كل تغيير ينفع الناس .

واذا كان النظام حرية وطائفية وكانت هذه نتائجه على صعيد السياسة والادارة والاخلاق والتربية والاقتصاد ، فينبغي الغاء الطائفيـــة اولا ثم مراجعةنظام الحرية لمعرفة مصادر الخلل فيه ومعالجتها بموضوعية وحكمة واخلاص .

ان التغيير حولنا دائم باستمرار ، اما نحن فلا زلنا منذ سنوات نصارع نتائج نظام التصنيف الطائفي فتصرعنـــا ونجتر قصة المشاركة في مواسم الاستيزار وتكون حصيلتنا منها الذنب او الفشل ، ونحكي مأساة الجنوب في مياهه ومدارسه وطرقه ومستشفياته وفي الفقر والمرض والجهل وهكذا امر البقاع ومناطـق بعلبك والهرمـل والشمال واطراف بيروت في مناطق المحرومين والمعذبين في الارض فلم يتحقق شيء لا الطالب ولا المطلوب .

ولقد اصبح بيننا وبين التقدم العصري اشواط من الزمن تفصلنا مئات السنين ونحن لا نستطيع ان نتخطاها الا بارادة التغيير ومنطق التغيير .

ان هناك اصوات مخلصة ترتفع وتدعو الى التغيير بما يعيد لهذا الشعب حريته ويشيع المساواة بين ابنائه ويترجمها

الى اعمال عاقلة هادئة يكون فيها الخير للجميع .

واني اعتقد ان تضافر الجهود وتوحيد الصفوف وجمع الكلمة تحت قيادة واحدة فهي باعث على تحقيق الهـدف ورفع الحرمان ، وان تشتت الكلمة وتفرق الصفوف لهو باعث على الفشل والبعد عن الهدف .

الجنوبيون والصمود

الجنوبيون والصمود

الجنوبيون يواجهون العدوان الاسرائيلي الذي لا يفرق بـين المدنيين والعسكريين • والمسؤولون يقفون موقـف المتفرج المنسحق امام الضربات المتوالية حتى لا يكاد الفرد يبدي حراكا ولا ينبث بنث شفة •

الجنوبيون الذين ينامون ويقومون على هدير الطائرات وضرب المدافع ، وخرق العدو الدائم لاجوائهم وارضهم ومياههم ، وسلبهم ونهبهم وخطفهم للابرياء منهم ، جعلهم لا يؤمنون بالاقوال والوعود طالمـا قد سمعوها قـديما وحديثا كثيرا ، ولم يتحقق لهم منها شيء ، ولم يدفع عنهم ضيما ولا ضررا •

فأصبح الجنوبيون يشعرون بالواقع المنسحق اقتصاديا واجتماعيا من خلال التخلف الذي تركه لنا التاريخ الطويل من الظلم والاضطهاد والفقر والجهل والجوع • وحاولت الحكومات المترعمة التي تقود هذا الشعب الى امجادها

التاريخية الحاضرة والمستقبلة ، انت تشعر بأننا نعيش في ارض مكشوفة فاقدة الحماية مبررين موقفهم بعدم القدرة تارة بتحميلنا المسئولية وتارة اخرى بافساح المجال لفئات معينة بضرب اسرائيل من خلال ارضنا .

لقد خطط العدو لاحلامه فاستطاع ان يحولها الى واقع يهدد احلام العالم في الحياة الهادئـة المطمئنة ، فلماذا لا نخطط لواقعنا هذا المرتبك المضطرب ، من اجل ان تتجاوز احلام اليقظة الى الواقع .

ان الشعوب التي تنتظر الحلول من العالم او ان يحل لها الآخرون مشاكلها فسوف تظل دائما تقتـات دموع المشاكل واحزانها دون جدوى ودون نهاية .

كل هذا الواقع جعلنا نشعر بالضياع ونحس بأن ارتباطنا بأية فئة من الفئات المطروحة في الميدان لا تحقق لنـا أي هدف وفي الوقت الذي ينشر العدو فيه الخراب والدمار في كل مكان وزمان وبأية ذريعة ووسيلة .

ومن الصعب ان يشعر الانسان بالعزة والكرامة ما دام لا يملك الحماية لا في الداخل ولا في الخارج ولا يملك النافذة التي يطل منها على الامل الكبير والمستقبل المتطور .

وضروري ان نبدل نظرتنـا الى خطط العـدو فتتجاوز

النظرة الساذجـة الى النظرة العميقة التي تحاول كشف مخطط المستقبل من خلال تجاربه في الماضي والحاضر ، ثم نخطط لحياتنا السياسية والاقتصادية والعسكرية على هذا الاساس .

ان الامم التي لا تنظر بعيدا في الافـق البعيد سوف تواجهها الهوة وهي تحلم بالقمة او تعيش احلام اليقظة .

يطالب المسئولون الجنوبيون بالصمود ومن الصعب في هذا المستوى من الوضع ان يطـالب الانسان الجنوبي بالصمود والتضامن ، مع اية قوى اخرى ، مـا لم يهيء الظروف الموضوعية النفسية والفكرية والعلمية التي تساعده على الصمود .

يطـالب الجنوبي بالصمود ، وكل اسبـاب الصمود معدومـة ، وأسباب الهرب موجودة ، الاشغال معطلة ، الارض وعرة ، الميـاه قليلة ــ لا تفي بحاجـة الانسان ، فكيف يستعملها لسقي الارض ــ الطرق الجبلية وعرة ، لا يكاد يصـل المزارع الى ارضـه الا بشق النفس ، والمستشفيات قليلة لا تفي بحاجة الجنوب ، المستوصفات قليلة ، المدارس غير مجهزة بما يهيء جوا دراسيا للمعلم والتلميذ ، حتى ان في كثير من القرى لا يوجد من يضرب ابرة لمريض اذا احتاج مرضه لنوع الابر مـن الادوية ،

طرق مواصلات الجنوب ضيقة ، فاذا جاءت سيارة تحتاج ان تخرج عن الطريق المبلط والى الخنادق جنب الطرق كي تمر السيارة الاخرى .

ارض الجنوبي مكشوفة للعدو ، وبيت الجنوبي مكشوف للعدو كذلك ، وغير مؤمن بملاجىء تقيه من غارات العدو ، واذا وجد ملجأ في قلب البلد فلا يكاد يصل اليه ابناء البلد حتى يذهب روعهم من الخوف . وعدم وجود حماية عسكرية في حدود الجنوب يسهل لاسرائيل الدخول في ارض الجنوب فتدمر وتأسر من تشأ وما تشأ وتذهب ولم يكن هناك معترض يعترض سبيلها .

ان الصمود يحتاج الى مقومات كالآتي :

منها ـ اعداد الارض التي يعيش عليها لكي توفر له اسباب الحياة الطيبة ، وليشعر بأنها تمثل الشيء الكثير في وجوده ليندفع الى التعلق بها ، بتشجيرها وتحسين طرقها وتوفير مياهها .

ومنها -ايجاد مشاريع زراعية لتحسين ارضه وتحسين انتاجها .

ومنها- ايجاد مشاريع صناعية معملية لترفع البطالة من منطقة الجنوب .

ومنها – تحسين الطرق والمواصلات الزراعية التي تمكن الفلاح من الوصول الى ارضه بسهولة لا بطلوع الروح .

ومنها – ايجاد مستشفيات تفي بمرضاه ومستوصفات تسهل عليه معرفة الداء وتناول الدواء وكيفية استعماله .

ومنها – ايجاد مدارس مهيئة بمناخ صالح يمكن التلاميذ والمعلمين من الاستمرار بالدراسة فيها .

ومنها – انشاء مشاريع الري ليستفيد منها الجنوبي في شربه وزراعته ولتعود عليه بالخير الكثير وذلك بالاسراع لتنفيذ مشروع الليطـاني وتعميمه على منطقـة الجنوب لتنتعش به .

ولكن يبدو لنا ان السياسة المتبعة في الجنوب سياسة مرسومة تستهدف ابقاء الجنوب متخلفا لتبقى مبررا للعدو في احتلاله امام العالم .

وربما تعيش مشكلة الليطاني في هـذا الاطار ، والا فكيف تفسر هذه الحركة السلحفاتية لهذا المشروع في دوائر الدولة وفي خطوات الدراسات التي تنتقل من خبير الى خبير دون جدوى وفي مسرحية السياسة التي تدور في تقدير المستوى بين ٦٠٠ و٨٠٠ متر الا تبرز لنا اساليب التخدير ،

والاولياء في ذلك كله التي ابعدتنا عن الواقع فقد قربتنا من الاحلام ، أي يبدو لنا ان القضية قضية خطة مرسومة لابقاء الجنوب متخلفا .

اما دورنا فهو ان نتحدى هذه الخطة ونكشفها من اجل الغاء مخططاتها والاعيبها ، وتنطلق بعيدا ، عن جو البساطة السذاجة والتزلف الذي يجعلنا نحقق لهم اهدافهم بأبخس ثمن وايسر وسيلة .

نحن لم نفقد الامل والانسان عندما يفقد الامل يفقد العمل ، ومن هنا يبرز عنصر الايمان بالله عاملا قويا في غرس الامل في القلوب ، وهذا ما تمثله الآية الكريمة في حوار يعقوب مع اولاده ، وهو يستعيد الامل في رجوع يوسف بعد عشرين سنة من غيابه في ظروف وامارات تلغي كل امل بعودته .

قال تعالى :

« يا بَنِيَّ اذْهَبوا فَتَحَسَّسوا من يوُسفَ وأخيهِ ولا تَيْأَسوا من رَوحِ اللهِ إنَّهُ لا يَيأَسُ من رَوحِ اللهِ إلاَّ القومُ الكافِرونَ »[1].

---

(١) يوسف – آية ٨٨ .

وسوف تختلف القضية اذا عرفنا هدفنا وفكرنا بعمق وجدية ، ودراستنا لقوانا ، وآمنا بقضيتنا مـن اعماق نفوسنا ، كما قال تعالى :

« والذي جاءَ بالصِّدقِ وَصدَّقَ بهِ أولئكَ هُمُ المتَّقونَ »[1].

اذا عشنا النفس الطويل الذي يعتبر انه منطلق قضيته المصيرية ، والامل لا بالنفس القصير وسذاجة الفكر مـا دامت الفرص موجودة امام المستقبل .

ونحن اذا رجعنا الى تاريخ الامم التي انهزمت وخسرت ثم انتصرت وعوضت خسارتها ، كالصين واسرائيل نفسها ـ وهي مشتتة منذ اربعة آلاف سنـة ـ والامر الذي يجعلنا نفكر ان الهزائم والخسائر ليست ابدية في حياة الامم ، وان العمل على مستوى التخطيط على مراحـل يحقق النتائج .

وان قضية الجنوب جزء من القضية الفلسطينية وكل ما يقوله المسئولون او يريده البعض من خروج الفدائيين من المنطقة سيحل المشكلة ، كلام ليس بصحيح وتخدير محلي.

---

(1) الزمر ـ آية ٣٤ .

نعم قد يفقد العدو بعض مبرراته امـام العالم ، ولكن بتجربتنا مع الصهيونية علمتنا انه لا يعدم المبررات معقولة او غير معقولة كلما احتاج اليها .

ان الجنوب هو حلم اسرائيل منذ عشرات السنين وما زالت تسير نحو تحقيق هذا الحلم على مراحل تحطم فيه القوى تدريجيا لتسيطر بعد ذلك دون اية مقاومة وبكل سهولة .

ان هدف اسرائيل ليس ضم الجنوب اليها فحسب بل الاحتلال من الفرات الى النيل ، وقد اعلن ذلك مفكروها وقادتها بأكثر من طريق .

ونلاحظ ان اسرائيل في حروبها الثلاثة مع العرب كانت تحاول تصعيد التأزم في كل مرحلة من المراحل الى درجة الانتحار حتى يدخل حربا جديدة لتكسب ارضا جديدة ، ولذا فهي تحاول من خلال مطالباتها بالمفاوضات المبـاشرة لتكرس هذا الواقع .

ايها المؤمنون نريد ان يتحمل كل منا المسئولية لتكون حافزا له على العمل وتكون حافزا للعطاء والبذل والتضحية، لانه قد اعتدنا وقد نكون جميعا ونحن نتكلم في حقوقنا اما اذ تتكلم ونعمل انأخذ ، ولا نتكلم ونعمل لنعطي .

ونحن اتكاليون في مواقفنا ، أي ندع العاملين منــا يعملون وحدهم ولا نمد لهم يد المساعدة ، فنتركهم يعملون في الساح وحدهم حتى يسقطون ولما يكملوا مسيرتهم التي ابتدأوها من اجل الله والانسان .

لقد بلغ الظلم الاجتماعي حدا اصبح يهدد حاضر الناس ومستقبلهم ، ان الظلم والتجاوز للحدود واقعان في كل شيء ، وشبحهما يهدد حرمة كل بيت ، ولقد امسى الغلاء وحشا ضاريا يفترس قوت التعساء ، واصبح الاحتكار

سلاحا ماضيا يستغله الاقوياء ، والسبب في ذلك هو ابتعاد الانسان عن تعاليم الرحمان والاخذ بتعاليم الشيطان .

ايها المؤمنون : ان تهيئة الرغيف لكم والعيش والقوت الضروري هو من الدين : ألم يقل الرسول (ص) ما آمن بالله من بات شبعانا وجاره جائعا . وقول الامام على (ع) :

« لو مثل لي الفقر شخصا لضربته بسيفي هذا » .

وقوله (ع) :

« ما جاع فقير الا بما متع غني وان الله تعالى سائلهم عن ذلك » .

وقول الصحابي الجليل ابو ذر الغفاري (رض) : اذا

دهب الفقر الى بلد قال له الكفر خذني معــك ، وقوله (رض) :

« **عجبت لمن لا يحوي القوت في بيته كيف لا يخرج على الناس شاهرا سيفه** » .

ايها المؤمنون : ان تهيئة العمل لكم من الدين فقد ورد ان الرسول (ص) : كان جالسا وحوله نفر من اصحابه فمر رجل جسيم فقالوا : حبــذا لو كان يصرف بدنه في سبيل الله . فقال الرسول (ص) : ان كان خرج يسعى على ابوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على صبية صغار فهو في سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على زوجة يعفها عن الحرام فهو في سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على نفسه ليمنعها مــن السؤال فهو في سبيل الله .

موقفنا من الحرمان

موقفنا من الحرمان

ونحن نعلن للملأ بكل صراحـــة ووضوح : اذا كانت المطالبة بحقوق المحرومين والمعذبين تآمرا فنحن متآمرون .

حيث لا مغضبة في الحق ، وانتصاف المظلوم من ظالمه قضية العدل والحق ، واذا اعتبرنا ان المطالبة برفع الغبن وازالة الظلم وافشاء العدل ونشر السلم في البـــلاد وبين العباد تآمرا وخيانة فعلى الدنيا العفا وعلى العدل السلام .

وعلينـــا ان نتوخى ونحذر الدعايات المضللة والمغرضة التي تشوه الحقائق وتقلب الواقع عن واقعه ، كما فعل الامويون فقد صورت دعاياتهم ان الامام الحسين (ع) وجماعته هم خوارج خرجوا على يزيد ، وليسوا من اهل بيت الرسول ولا طلاب الحق ولم يخرجوا لنصرة الاسلام والمسلمين ورفع العذاب عن المعذبين .

وعلينا جميعا ان لا نترك قيادتنا يستفردها المغرضون في

الساح وتبقى وحيدة تعمل بمفردها ، فنخسر عندئذ قضيتنا وحقوقنا والانسان مهما كان عظيما لا يمكنه ان يعمل الا ان يتعاون معه الآخرون وبخاصة المظلومين اصحاب القضية ، فهؤلاء يجب عليهم ان يتعاونوا مع قيادتهم المخلصة ويرفضوا الدعايات المضللة والمغرضة والكاذبة ويكونوا دائما على حذر من ذلك وانا اتساءل :

أولا - هل يحق لاناس صنعتهم أيد (معلومة) ان يتكلموا باسم الطائفة والمصلحة العامة والوطن والوطنية ويعتبر هذا من حقوقهم ، ولا يحق للمخلصين ان يتكلموا باسم الطائفية والمصلحة العامة والوطن ويعتبر هذا انه ليس من حقهم ، ان هذا لظلم عظيم واجحاف ما له مثيل .

وثانياً - لماذا يعزل الاكفاء من ابنائنا عن العمل وتعطى المناصب لاناس يوجد من هم اكفأ منهم من الطائفة اضف الى هذا الفوضى في العطاء ، فيعطى منصب الهندسة مثلا لمعلم المدرسة ومصب آخر لانسان غير كفؤ .

ونحن ندعو لاصلاح الانسان غير يائسين مما وصل اليه افراده من وحشية ضارية وحيوانية منحطة ، فان الانسان في هذه الحياة وعلى هذه الارض كفارس يمتطي جواده ، فرب فارس كبا به جواده واستمرت بالفارس كبوته ونبوته وعثرته ، ورب فارس كبا به جواده ، ولكن عاد الفارس

وقام فجدد السير وواصل المسيرة ، ولم تمنعه كبوته عن مواصلة مسيرته للوصول الى غايته .

والانسان يسير الى غايته من ولادته حتى وفاته ، وغاية الانسان هي العودة الى الله ، فاذا عثر في مسيرته هذه الى الله ، فما عليه الا ان يواصل السير ويتجنب العثرات وذلك بالتوبة الى الله من الذنب والتقصير عن العمل والنهوض بالمهام والسير في خط الانبياء والمرسلين وايقاظ الجاهلين وتنبيه الغافلين ليعرف الحق من جهله ويرعوي عن القتل والعدوان من لهج به .

وهل تتصور ان الامام الحسين (ع) لو بقي جالسا في بيته يقيم الصلاة والطقوس الدينية كما نقيمها نحن اليوم ولم يدعو للاصلاح،ولم يخرج للجهاد والتضحية في سبيل‌الله وفي سبيل رفع العذاب عن المعذبين وردع الظالم يزيدا عن ظلمه وكشف النقاب عن المضللين الحاكمين والفئة المأجورة والمرتزقة حوله ، امثال عبيد الله بن زياد وشمر وحرملة وعمر بن سعد واحزابهم .

أكان بقي اسلام ومسلمون ، أم كان ذهب الاسلام ومات المسلمون ، وعادت الجاهلية مهلهلة بالاسلام المنحرف ولم يصلنا نحن الاسلام .

وهل يختلف الحاكمون وعملاؤهم اليوم عن الحاكمين

وعملائهم ايام الحسين (ع) فان الحاكم اليوم يشبه الحاكم ايام الحسين (ع) في افعاله واقواله ، والشعب اليوم يشبه الشعب ايام الحسين (ع) في الظلامة واستلاب حقوقه ودعس كرامته ومهانته واحتقاره واهمال شأنه .

والامام الحسين (ع) الذي ثار على يزيد الحاكم المتمرد على الخالق والمخلوق والذي داس الشعب وكرامته ، قد سمي خارجا لان كل من يعارض يسمى في ايام الامام الحسين (ع) خارجيا ، وكل من يثور اليوم على الظلم والظالمين لتحصيل حقوق المعذبين والمحرومين المظلومين يسمى متآمرا .

وان الفتنة الكبرى التي منينا بها في لبنان سنة ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ كان منشأوها الغبن الفاحش بين الاخ واخيه والجار وجاره وتفشي الرذيلة والتحلل من القيم والتعاليم الالهية والبعد عن الله تبارك وتعالى فيما وصل اليه الناس من الحيوانية والتخلي عن المثل الانسانية ، فذهب في هذه الفتنة عشرات الالوف من العباد الآمنين الابرياء ، ودمر الكثير من عمران البلاد وتشوه الخَلق والخُلق ورملت النساء وأيتم الاطفال ، وهجر الناس مساكنهم وتركوا ديارهم وعطلت اعمالهم واشغالهم واصبح الناس عاطلين عن العمل عاجزين وخربت المتاجر والمصانع وتركت الديار براقع .

واستغل الفتنة واتنهز الفرصة اعداء الشعب من الاحزاب

واهل الاطماع من الساسة والرؤساء وحولوا المعركة لانتصارات حزبية ومنافع شخصية وقد خطط لذلك اسرائيل والمستعمرون وتجار الشعوب في هذا البلد وفي كل بلد ، والاحزاب التي تأكل الاخضر واليابس باسم الكادحين والضعفاء المضطهدين وتحولت الامور الى لا غالب ولا مغلوب وشغل البال في عودة الامن والسلام ، وكادت ان تنسى الامور التي الهبت نار الفتن كأن لم تكن بالبال ولا بالحسبان .

وهل بعد ذلك من معتبر يعود الى الرشد والصواب ويستفيد من المحنة دروسا قيمة وعظات بالغة وعبرا نافعة فيرجع الى الله تعالى ويحاسب نفسه قبل ان يفوت الاوان فمن كان غاصبا لحقوق اخيه عاد وانصف اخاه من نفسه واوصل له بكامل حقه ، ومن كان عاصيا لله تاركا لفرائضه مرتكبا لمحارمه خارجا على حدوده تب واناب فقام بالواجب وترك الحرام وسلك الصراط المستقيم وتحلى بأخلاق النبيين ودعى بعد ذلك الى وحدة الكلمة وجمع الشمل ورص الصفوف لازالة الحرب والرعب ونشر الامن والسلام ، والعودة الى الوحدة والوئام بعد الفرقة والخصام ، والضرب بيد من حديد على مفرقي الصفوف وناشري الفتن ومقاصصة المعتدين وحماية الوطن والمواطنين .

العزة والكرامـــة

العزة والكرامة

العزة والكرامة ليست من القضايا الشخصية التي يملك فيها الانسان حرية الممارسة على اساس المصالح والدوافع الذاتية وهذا يستفاد من قوله تعالى :

« وَلِلّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلمُؤمِنِينَ وَلَكِنَّ المُنافِقِينَ لاَ يَعلَمُونَ »[1] .

ويستفاد تفسيرها مما روي عن الامام جعفر الصادق(ع):

« ان الله فوض الى المؤمن اموره كلها ولم يفوض اليه ان يذل نفسه ، ان المؤمن اعز من الجبل ، ان الجبل يستقل منه بالمعاول ، والمؤمن لا يستقل من دينه شيء » .

فانه يفهم من وحي الآية الكريمة ان عزة المؤمنين بنفس القوة والاصالة التي يتصف بها الله ورسوله ، فكما لا يمكن تصور الذلة في الذات الالهية او في الرسول فكذلك لا يمكن تصورها ــ عمليا ــ في المؤمنين ، لان الايمان

(١) المنافقون ــ آية ٩ .

يربط الانسان بالله ويجعل مواقفه العملية في الحياة منطلقة من هذا الارتباط ومطبوعة بطابعه .

ويتضح مفهوم العزة للمؤمنين من اقتران عزة المؤمنين بعزة الله ورسوله ، وفي حديث الامام الصادق (ع) من تفويض امور المؤمن كلها اليه الا ان يذل نفسه فانه لم يفوض اليه لقاء أي شيء كان من مصلحة او شهوة او رغبة او رهبة ، لان عزة الانسان ليست من القضايا الذاتية (الشخصية) يملك فيها التصرف تبعا لدوافعه الخاصة .

وانت عندما تخضع لانسان غير مرتبط بالله او سلطة جائرة او ترضى بالذل والعبودية لغير الله ، فلن تكون الخسارة عليك وحدك بل ستنعكس على حياتك وعلى ما تحمله من عقيدة وسلوك .

وبما ان الانسان جزء من المجتمع لان الفرد جزء من الكل مرتبط به كما ان الكل مرتبط بالجزء مؤثر به ، وبهذا يكون الموقف الاذلالي الذاتي للفرد سببا في اذلال المجتمع ، لما بين الفرد والمجتمع من ارتباط .

اذن فهؤلاء الذين يباركون عهود الاستعمار بشتى اشكاله والوانه او يتعاطفون معه او يتعاونون معه او يتصرفون أي تصرف يكرس الخضوع والعبودية والذلة

لا يمكن ان يكونوا مؤمنين ايمانا اصيلا ومسلمين اسلاما صحيحا .

وقال تعالى :

« ولاَ تَرْكَنُوا إلى الَّذينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ »[1].

وقال تعالى :

« ومَا كُنْتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُداً »[2].

وقال تعالى :

« الَّذينَ يَتَّخِذونَ الكافِرينَ أوْلِياءَ مِنْ دونِ المُؤْمِنِينَ أيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ العِزَّةَ فإنَّ العِزَّةَ للهِ جَميعاً »[3].

فهي تمثل بعض النماذج الموجودة في كل زمان ومكان مما يخيل اليهم ان الارتباط بالكافرين والسير معهم والتبعية لهم والانطلاق مع مخططاتهم سوف يمنحهم العزة والكرامة ولذلك فهم يربطون حياتهم ليحصلوا على ذلك .

ثم يتركون التعاطف والتعاون مع المؤمنين لانهم لا

---

(١) هود ـ آية ١١٤ .
(٢) الكهف ـ آية ٥٣ .
(٣) النساء ـ آية ١٤٠ .

يشعرون بأن ذلك يصلح اساسا للعزة والكرامة ، والقرآن الكريم يشجب هؤلاء ويحاسبهم من ناحية واقعية تتصل بالايمان فهم يبتغون العزة عند هؤلاء لانهم اقوياء ، ولانهم يملكون بعض الامكانيات التي لا يملكها المؤمنون •

ولكن ، الا يرى هؤلاء ان هذه القوة الموجودة في هذا العالم هي منطلق الشعور بالعزة والكرامة لمن يملكها ، وهي ملك الله فهو خالقها وهو القادر على اعطائهــا لمن يشاء ونزعها عمن يشاء حسب حكمته ورحمته وقدرته •

واذا كان الله يملك القوة جميعا فهو يملك العزة جميعا ، وهو القــادر ان يمنحها لعبــاده اذا ساروا في طريقــه المستقيمة •

وهؤلاء الذين يختلفون مع الامة في مخططاتها وافكارها واهدافها وبالتــالي في مصالحها ، لا يمكن ان ينطلقوا في خططهم في اتجاه مصالح الامة لانهم ـ بذلك ـ يبتعدون عن مصالحهم الذاتية ، ولا يمكن ، بالاضافة الى ذلك ، ان يعطوا الامة اية قوة جديدة لانها ستتحول بنظرهم الى خطر على مصالحهم واطماعهم ، بل ربما تكون القضية عكسية وانهم سيستغلون السذاجة الفكرية والعملية لبعض فئات الامة عندما تعتمد عليهم فيحاولون استغلال هــذه الثقة العميــاء لتنفيذ مخططاتهم لمصالحهم الشخصية • ثم هم

هؤلاء ينقضون على المصالح للقضاء عليها بعد التخلص من العدو المشترك ويعودون بأقوى المظاهر وتعود الامة بكل مظاهر الضعف .

وربما يشير الى هذه المعاني التي اشير اليها في قوله تعالى:

« يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا لاَ تَتَّخِذوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لاَ يَأْلونَكُمْ خَبالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ البَغْضاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ. هَا أَنْتُمْ أُولآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالكِتابِ كُلِّهِ ، وإذا لَقُوكُمْ قالوا آمَنَّا وإذا خَلَوا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنامِلَ مِنَ الغَيْظِ ، قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَليمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ . إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحوا بِها وإِن تَصْبِروا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ »[1]

---

(1) آل عمران ـ آية ١١٩ ـ ١٢٠ ـ ١٢١ .

ولا يمكن للضعف ان يكون مبررا للخضوع لهذه القوة او لتلك .

هناك فئات في كل امة وفي كل زمان ومكان يعيشون تحت نير الظلم وسلطة الانحراف فيظلمون انفسهم باتباعهم الظالمين وينحرفون عن الخط بخضوعهم لسلطة الانحراف ويعيشون الذلة لشعورهم بالضعف .

ويظنون لانفسهم العذر في ذلك كله بأنهم مستضعفون لا يملكون القوة على المقاومة ، ولا يستطيعون مجـابهة التحديات الموجهة اليهم ، ولا يجدون القدرة العملية على ان يرفعوا اصواتهم في مواجهة الظالم ليردعوه عن ظلمه ، او ليحتجوا على الظلم او ليقولوا كلمة الاستقامة في مواجهة الانحراف ليصححوا الانحراف وليقوموا الاعوجاج ، ولهذا ساروا مع الظلم ينفذون مخططاته ويعملون في خدمتـه وعادوا قوة مناصرة للظلم وهم يكرهونه وارتاحوا الى حياة الذل لانها تجنبهم مشاكل الصراع والمقاومة وشعروا براحة الضمير في ذلك كله نظرا الى واقع الضعف . فجاءت هذه الآية تشجب هذا الواقع ولتحملهم المسؤولية في ذلك كله ولتقول للانسان الذي يستشعر الضعف ان عليك ان لا ترضى بالامر الواقع ما دمت تستطيع الهجرة من بلد الظلم الى ارض جديدة لتتخذ موقفا جديدا من موقع قوة جديد

وذلك قوله تعالى :

« إنَّ الَّذينَ توَفَّاهُمُ الملائِكَةُ ظالِمي أنفُسِهِم قالوا فِيمَ كُنتُم قالوا كُنّا مُستَضعَفينَ في الأرضِ ، قالوا ألَم تَكُن أرضُ اللهِ واسِعَةً فتُهاجِروا فِيها ، فأولئِكَ مأواهُم جهَنَّمُ وساءَت مَصيراً . إلاَّ المُستَضعَفينَ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ والوِلدانِ لا يَستَطيعونَ حِيلَةً ولا يَهتَدونَ سبيلاً. فأولَئِكَ عَسَى اللهُ أن يَعفُوَ عَنهُم وكانَ اللهُ عَفُوّاً غفُوراً. ومَن يَخرُج مِن بيتِهِ مُهاجِراً إلى اللهِ ورَسولِهِ ثُمَّ يُدرِكهُ المَوتُ فَقَد وَقَعَ أجرُهُ عَلى اللهِ وكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً »[1]

ولكي يكون الانسان عزيزا لا بد يملك حرية التصرف امام رغباته وشهواته ، فلا تستعبده رغبة ولا تسيطر عليه شهوة لان ذلك هو السبيل الوحيد الذي يجنبه الانزلاق في مزالق الانحراف وعوامل الاغراء التي تدفعه لان يعطي من نفسه ومن مواقفه في الحياة الكثير للاخرين على حساب

(١) النساء ـ آية ٩٨ ـ ٩٩ ـ ١٠٠ ـ ١٠١ .

عقيدته ووطنه من اجل ان يحقق رغبة او يستسلم لشهوة .

وقد نجد ملامح ذلك في حديث الامام الباقر (ع) :

« بئس العبد عبد له طمع يقوده ، وبئس العبد عبد له رغبة تذله » .

وحديث الامام جعفر الصادق (ع) :

« ما أقبح المؤمن ان تكون له رغبة تذله » .

ورغبات الناس تختلف فقد تتحكم في البعض رغبة الجنس وقد تتحكم في البعض الآخر رغبة المال او رغبة الملك وهكذا .

واحداث الحرب العالمية الاولى والثانية قد لعبت دورا كبيرا في اذلال الكثيرين من القادة امام النساء اللاتي كن صنيعة هذا المعسكر او ذاك ، ولا تزال قصص استخدام النساء في التجسس تلعب دورا كبيرا في هذا العالم المعاصر .

وهذا ما يعبر عنه اصدق تعبير كلام الامام الحسين (ع) :

« الا وان الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة ، وهيهات منا الذلة يابى الله لنا ذلك ورسوله والمومنون وحجور طابت ونفوس طهرت من ان توثر طاعة اللئام على مصارع الكرام » .

وقوله الآخر :

« لا والله لا اعطيكم بيدي اعطاء الذليل ولا اقر اقرار العبيـد » .

وكلمة الامام الصادق (ع) :

« ان المؤمن اعز من الجبل ، ان الجبل يستقل منه بالمعاول والمؤمن لا يستقل من دينه شيء » .

ولعل الفكرة تبلغ الذروة في الكلمة التي قالها الامام علي (ع) في وصيته لولده الامام الحسن (ع) :

« اكرم نفسك عن كل دنيئـة وان ساقتك الى الرغائب فانك لن تجد بما تبذله من نفسك عوضا » .

ونجد التعبير الواقعي في كلمتين للامام الصادق (ع) اجاب بهما عن سؤال واحد ، كيف يذل الانسان نفسه قال :

« ان يدخل فيما يعتذر منه ، او يتعرض لما لا يطيق » .

اما الكلمة الاولى فتمثل الموقف الذي يستسلم فيـه الانسان لبعض الرغبات الذاتية فيتصرف بعض التصرفات غير المسؤولة فيؤيد من لا يستحق التأييد او يرفض من لا يستحق الرفض ، او يتحرك بعض التحركات الخاطئة ، او

يقف موقفا سلبيا في الوقت الذي تفرض عليه المبادىء ان يكون ايجابيا •

واما الكلمة الثانية فهي تحدد للانسان بعض مظاهر الذل في السلوك ان يتعرض لما لا يطيق •

فتتمثل في الاعمال والمشاريع التي يقدم عليهـا الانسان وهو يعرف انهـا فوق طاقته ، ولذلـك فهو يضطر الى الاستعانة بالآخرين والخضوع لشروطهم وطلباتهم من اجل اكمال المشروع وتخفيف اعبائه، وهذا سلوك يعرض الانسان لمواقف الذل امام الآخرين وربما نجد نماذج هذا السلوك في الواقع الفردي والاجتماعي والدولي •

ففي المجال الفردي ، هؤلاء الذين يدخلون في مشاريع عمرانية وصناعية تفوق رصيدهم المالي والمعنوي فيسقطون تحت رحمة المرابين والمستغلين نتيجة عجز المشروع •

وربما يكون من هؤلاء الذين يغريهم الشراء بالتقسيط لسهولته في بداية الامر مما يشعر الانسان بسهولة اقتنائه ادواته المنزلية بالتقسيط دون ان يحسب حسابـا لتجمع الاقساط التي يعجز عن وفائها بعد ذلك •

وفي المجال الاجتماعي والدولي نجـد الدول الصغيرة

ترهق نفسها بالديون الكبيرة من الدول الكبرى لتحقيق بعض المشاريع الحيوية دفعة واحـدة ، دون ان تدرس مواردها التي تمكنها من الوفاء في المواعيد المحددة فتكون النتيجة ان تخضع لسيطرة هذه الدول تدريجيا (١) .

(١) المسائل الدينية .

الاسلام والمحبـــة

الاسلام والمحبة

ان تعاليم الاسلام توحي الينا بما نفتقر اليه جميعنا من معاني المحبة التي دعى اليها الرسول الاعظم محمد (ص) بأقواله وطبقها بأفعاله ، وذلك بما انزل الله عليه من قرآن كريم وبما أثر عنه (ص) من حديث شريف يفيضان برا وخيرا ونورا وهداية ورحمة وسماحة وعدلا واحسانا على العالمين .

فقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ »[1] .

وجاء في الحديث الشريف عنه (ص) :

« لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه » .

---

(١) الحجرات ــ آية ١١ .

وجاء في حديث آخر عنه (ص) :

«لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا».

لقد خلق الله الانسان وجعل في قلبه المحبة لتنموا باتجاه السماء ، فاذا بها في قلوب الناس مع الاسف تميل باتجاه الارض في اضيق الحدود وتقف هذه المحبة على الاباء او الابناء او الاخوان او الازواج او العشيرة او الاموال او التجارة او المساكن هي الحدود النهائية لمحبة لانسان والغاية القصوى لانشغال قلبه بغير الرحمان ، حتى صدق في الناس هؤلاءقوله تعالى :

« ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْداداً يحِبُونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ، والَّذينَ آمَنوا أَشَدُّ حُبّاً للهِ »[1] .

قال تعالى :

« قُلْ إنْ كانَ آباؤُكُمْ وأَبْناؤُكُمْ وإِخْوانُكُمْ وأزْواجُكُمْ وعَشيرَتُكُمْ وأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُموها وتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها ومَساكِنُ تَرْضَوْنَها

(۱) البقرة ـ آية ١٦٦ .

أَحبَّ إِلَيكُمْ مِنَ اللهِ ورَسولِهِ وجِهادٍ في سبيلِه فتَربَّصُوا حتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ، واللهُ لا يَهْدي القَوْمَ الفاسِقينَ »[٢].

وفي هذا تحذير خطير تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ومحبته .

ايها المؤمنون : ان المحبة في الاسلام ايا كان موضوعها آباء او ابناء او اخوانا وازواجا وعشيرة واموالا وتجارة ومسكنا ينبغي ان تكون وسيلة وغايتها الله تبارك وتعالى اعني وسيلة وطريقا للدعوة الى طاعته والعمل على مرضاته والسعي لاعلاء كلمته والسير في سبيله وعلى هداه .

فاذا انقلبت واصبحت غاية في ذاتها كحب الآباء لذاتهم وحب الابناء لذاتهم وحب الاخوان لذاتهم وحب الازواج لذاتهن وحب العشيرة لذاتها وحب المال لذاته والتجارة لذاتها والمساكن لذاتها فان الانسان معها يكون سالكا لغير طريق الله فلا خير في من يحب من آباء وابناء واخوان وازواج وعشيرة ولا بركة في ما يجمع ولا بقاء لما يعلي من البنيان ، ولا جدوى مما يكتشف او يبدع في حقول العلم والفن والحياة .

---

(٢) التوبة ـ آية ٣٥ .

ايها المؤمنون ، ان اعلى درجات المحبة في الاسلام هي العبادة ، وهي خاصة الله سبحانه وتعالى : ينفرد بها في قلب عبده المؤمن دون سواه . وليست صلاة الجماعة التي حث عليها الاسلام وندب اليها في اليوم خمس مرات في الفرائض الخمس وصلاة الجمعة وصلاة العيد جماعة في الفطر والاضحى الا صورة من صور المحبة في الاسلام لله وعباده وليس الحج الا مجمعا سنويا للمؤمنين ليتبادلوا المحبة مع الله تعالى ومع عباده المؤمنين ، كيف لا والمؤمن الحاج يتخلى عن كل ما يحب من مال ومتاع واهل وولد ليهاجر الى الله تعالى الى المحبوب الاكبر جل وتقدس .

ان حقيقة الدين وجوهره فيالاسلام يقوم اذن على المحبة المتبادلة بين الله والعبد ، كيف لا والله سبحانه يقول :

« يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دينِهِ فَسَوفَ يَأْتِي اللهُ بِقَومٍ يُحِبُّهُمْ ويُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ على المُؤمِنِينَ أَعِزَّةٍ على الكافِرينَ ، يُجاهِدونَ في سَبيلِ اللهِ ولا يَخافونَ لَومَةَ لائِمٍ ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ واللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ »[1] .

---

(١) المائدة ـ آية ٥٥ .

ايها المؤمنون : ان قوام الاخلاق في الاسلام والذي بعث رسول الله (ص) لتتميمها حيث يقول : «انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق» – ليس بأي حال في امتلاك ما نحب وما نجمع ، بل هو في التضحية بما نحب في سبيل ما يحبه الله ويرضاه ، وفي ذلك يقول تعالى :

« لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ »[1].

فما هو الذي يحبه الله ويرضاه ؟ ان الله عز وجل يخبرنا في كتابه انه يحب الايمان والمؤمنين والاحسان والمحسنين والتوبة والعدل والعادلين والطهر والمتطهرين والتقوى والمتقين والصبر والصابرين ، والتوكل والمتوكلين والقسط والمقسطين والذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص .

ويخبرنا سبحانه الى جانب ذلك انه يكره الكفر والكافرين والظلم والظالمين والفساد والمفسدين والعدوان والمعتدين والاثم والآثمين والاسراف والمسرفين والخيانة والخائنين والاستكبار والمستكبرين والاختيال والمختال

---

(٢) آل عمران – آية ٩٣ .

والمختالين والفخر والفخورين والجهر والسوء به والمتجاهرين الا من ظلم •

ان هذه الاشارات الالهية هي اسس واضحة لمعاني المحبة التي هي المعين الذي لا ينضب لافعالنا وسلوكنا وعلاقاتنا بالآخرين •

ايها المؤمنون : لقد تبدلت مفاهيم المحبة لدى قلوب الكثير من الناس في مجتمع هذا العصر ، فأصبح المقياس الخلقي الوحيد على حب ما يمتلك الانسان من مال واعيان وقوة وسلطان ، واصبح ذلك كله محبوبا من دون الله ، واصبح هو الغاية القصوى لدى الافراد والمجتمعات والدول •

ايها المؤمنون : ان آلامنا التي عشناها ونعيشها اليوم نريدها ان تكون حافزا للمحبة في لبنان التي تبعث على الشعور بالآخرين واحترام الآخرين ومواساة الآخرين •

نريد المحبة ان تدخل كل قلب وترفرف على كل بيت ، لتضع عن كواهل المتعبين احمالهم وتحقق للمحرومين آمانيهم وتعطي للمظلومين حقوقهم •

لقد بلغ الظلم الاجتماعي في لبنان حدا اصبح يهدد حاضر الناس ومستقبلهم •

ان الظلم والتجاوز للحدود واقعان في كل شيء ، وشبحهما يهدد حرمة كل بيت ، ولقد امسى الغلاء وحشا ضاريا يفترس قوت التعساء ، واصبح الاحتكار سلاحا ماضيا يستغله الاقوياء ، والسبب الاساسي لهذه المظالم كامن في ابتعاد الناس عن روح المحبة ، تلك المحبة التي حملتها رسالات السماء ، تلك المحبة التي تفيض رحمة بين البشر ، وعدلا بين الناس .

ايها المؤمنون : من يحب عباد الله فهو يحب الله تبارك وتعالى . حيث جاء في الحديث الشريف : «الخلق كلهم عيال الله واحب الخلق اليه انفعهم لعياله » .

والانسان عندما يحب نفسه فيبتغي الكمال لها والفضيلة فهو يحب الله تعالى لانه طلب الكمال موصل الى الله سبحانه فالفضيلة والعلم هما امران مقربان اليه سبحانه والانسان انما يكون انسانا متوجها الى الله سبحانه عندما يكون في حالة ذكر الله تعالى وعندما يترك طلب الكمال والفضيلة والرقي الموصل الى الله يكون انسان قد تحول الى حيوان فنسي الله وانشغل بحيوانيته عن طلب الكمال والرقي والعطاء الذاتي للادميين .

ومن يحب الله يؤثر مراد الله على مراده ، اذ المحب لا يخالف هوى محبوبه لهوى نفسه ، فمن كان محبا لله يمتثل

اوامره ويجتنب نواهيه ، ويحترز عن اتبــاع الشهوات ، ويدع الكسالة والبطالة،ولا يزال مواظبا على طاعته وانقياده، ويكون مبتهجا متنعما بالطاعة ولا يشغله عنها ويسقطها عنه تعبها •

والله سبحانه يمتحن عباده بأنواع البلاء ، ويمتحن حب عباده له وايمانهم به•فبعضهم يمتحنهم بالمال فيؤتيهم المال،فهل هم ينفقون ويؤدونه حقه ، ام انهم يبخلون بما أتاهم الله من فضلــه وسوف يطوقون بما بخلوا به يوم القيامــة ، وبعضهم يمتحنهم بجاهه ، فهل هم يستعملون جاههم في طاعة الله لقضاء حاجات عباد الله ام انهم يستعملونه في طاعــة الشيطان وبظلم العباد ، وبعضهم يمتحنهم بالعلم ، فهل هم ينفقونه لهدي الناس ، والعلم يزكو على الاتفاق ام انهم يكتمونه عن اهله ، وبعضهم يمتحنهم بولده كما امتحن الله ابراهيم خليله ، قد رأى رؤيا بأنه يذبح ولده فاذا بالوالد يدعو الولد للذبح واذا بالولــد يجيب طلب والــده واذا بالجليل جل وعلا يفدي الولد بكبش عظيم ويختار ابراهيم البلاء والمحنة

ويمتحن الله ابراهيم الخليل في نفسه فيروى عندما وضع فوق النار جاءه جبرائيل قال : يا ابراهيم ألك من حاجة ؟ قال : أخي جبرائيل اما اليك فلا •

ايها المؤمنون ان الانسان اذا ما قابل الله سبحانه وتعالى

بأقصى محبة في قلبه فاتبع اوامره واجتنب نواهيه ، فان الله جل شأنه ، وهو اكرم الاكرمين ، لا يمكن الا ان يقابل الانسان بمحبة اكبر ، لا تخطر له في بال ولا يتسع لها قلب ، ولا تعرفها جارحة ، فيكون معه في كل حال يدا وفكرا وعينا وقلبا يكون عند حسن ظنه وآماله قال تعالى :

وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ على اللهِ فَهوَ حَسْبُهُ ، إنَّ اللهَ بالِغُ أمْرِهِ ، قَدْ جعَلَ اللهُ لِكُلِّ شيءٍ قَدْراً » .[1]

وجاء عن الرسول (ص) : «لا يؤمن احدكم حتى يكون الله ورسوله احب اليه مما سواهما» .

وعنه (ص) : احبوا الله لما يغذوكم به من نعمة واحبوني لحب الله» .

وفي الحديث عنه (ص) : «ان الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الايمان الا من يحب» .

وعنه (ص) : «اذا احب الله عبدا ابتلاه ، وان صبر

---

(١) الطلاق ـ آية ٣ ـ ٤ .

اجتباه ، وان رضي اصطفاه» •

وقال (ص) حاكيا عن الله : « لا يزال العبد يتقرب الي بالنوافل حتى احبه ، فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ولسانه الذي ينطق به » •

وعنه (ص) : اذا احب الله عبدا جعل له واعظا من نفسه وزاجرا من قلبه يأمره وينهاه •

وافضل انواع الحب : الحب في الله والبغض في الله فقد جاء عنه (ص) : « ود المؤمن للمؤمن في الله اعظم شعب الايمان ، الا ومن احب في الله ، وابغض في الله ، واعطى في الله ومنع في الله ، فهو من اصفياء الله » •

وقال (ص) لاصحابه : « أي عرى الايمان أوثق ؟ فقالوا : الله رسوله اعلم ، فقال بعضهم : الصلاة ، وقال بعضهم : الزكاة ، وقال بعضهم : الصيام ، وقال بعضهم : الحج والعمرة ، وقال بعضهم : الجهاد ، فقال رسول الله (ص) : لكل ما قلتم فضل وليس به ، ولكن أوثق عرى الايمان الحب في الله والبغض في الله وتوالى اولياء الله والتبرؤ من اعداء الله •

وعن علي (ع) في وصيته لابنه الحسن : يا بني احبب لأخيك ما تحب لنفسك واكره له ما تكره لها •

وعن الامام الباقر (ع) : اذا اردت ان تعلم ان فيك

خيرا فانظر الى قلبك فان كان يحب اهل طاعة الله ويبغض اهل معصيته ففيك خير والله يحبك ، واذا كان يبغض اهل طاعة الله ويحب أهل معصيته فليس فيك خير والله يبغضك والمرء مع من أحب .

وعنه (ع) : « لو ان رجلا احب رجلا لله لاثابه الله على حبه اياه ، وان كان المحبوب في علم الله من اهل النار ، ولو ان رجلا ابغض رجلا لله ، لاثابه الله على بغضه اياه ، وان كان المبغض في علم الله من اهل الجنة » .

وعن الامام الصادق (ع) : « من احب لله ، وابغض لله ، واعطى لله ، فهو ممن كمل ايمانه » .

وعن الصادق (ع) : ان المتحابين في الله يوم القيامة على منابر من نور ، قد اضاء نور وجوههم ونور اجسادهم ونور منابرهم كل شيء ، حتى يعرفوا به ، فيقال : هؤلاء المتحابون في الله » .

وقال : « وهل الايمان الا الحب في الله والبغض في الله » . ثم تلا هذه الآية :

وَأعْلَمُوا أنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لوْ يُطيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلكِنَّ اللهَ حَبَّبَ

إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَالفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ »[1] .

وعنه (ع) : « ما التقى المؤمنان قط الا كان افضلهما اشدهما حبا لاخيه » .

وروى عن عيسى (ع) انه قال : « تحببوا الى الله ببغض اهل المعاصي ، وتقربوا الى الله بالتباعد عنهم ، والتمسوا رضى الله بسخطهم » .

اوحى الله تعالى الى داود (ع) قال : « تريد واريد وانما يكون ما اريد ، فان اسلمت لما اريد كفيتك ما تريد ، وان لم تسلم الى ما اريد اتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون الا ما اريد » .

وعنه (ص) : « الجزع عند البلاء تمام المحنة » .

وقال (ص) « ان عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وان الله اذا احب قوما ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » .

وفي الخبر القدسي : « من لم يرض بقضائي ولم يشكر على نعمائي ولم يصبر على بلائي فيطلب ربا سواي » .

---

(1) الحجرات ـ آية ٨ .

من تعاليم المسيح (ع)

حثه على تطهير النفس .

فقد طلب ان تنقي الكأس من داخلها وعلم النـاس ان ملكوت الله قائم في ضمائرهم فهو يقول :

« لا يأتي على موعد مرتقب ، ولا يقولون هوذا هنا او هوذا هناك ، لان ملكوت الله فيكم » (١) .

وكان ينكر كل ما يراه من المظاهر التي تنبعث من اعماق الوجدان ، فلا احسان عنده للمرائين لانهم تجارا اخـذوا ارباحهم فلا حق لهم عند الله .

« واذا بذلت الصدقة فلا تنفخ امامك بالبوق ، كما يفعل المراؤون لكي يمجدوا من النفس ، فالحق اقول لكم انهم قد استوفوا اجورهم فمتى صنعت صدقة فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك » (٢) .

---

(١) لوقا ـ اصحاح ١٧ رقم ٢١ .
(٢) متى ـ اصحاح ٦ رقم ٢ ـ ٣ .

حثه على تنقية الضمير .

اما الضمير فقد جعله كفؤا للعالم بأسره ، ان لم يكن زائدا عليه :

« لانه بماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ، او ماذا يعطي الانسان فداء عن نفسه» (١) .

والطهر كل الطهر في نقائه ، وكل اليقين مرجعه اليه :

« فليس شيء من خارج الانسان يدنسه ، بل ما يخرج من الانسان ، هو الذي يدنس الانسان» (٢) .

وكل شيء في العالم ينقاد لقوة الضمير :

« لوكان لكم ايمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذه الشجرة : انقطعي وانغرسي في البحر فتطيعكم » .

واما حياة الانسان وبقاؤه وقوامه وطعامه فهي برعاية الله الرحيم بعباده . والانسان لا يحيا بالخبز وحده ، وانما يعيش بكل كلمات الله ، فعليه ان يثق بربه فوق ثقته بنفسه ، وان يعتمد برزقه عليه اكثر من اعتماده على سعيه وحياته ولا يهتم بالغد لان الغد يهتم به بنفسه :

---

(١) مرقس ـ اشحاح ٨ رقم ٢٦ و٢٧ ومتى اصحاح ١٥ رقم ١١ .
(٢) مرقس ـ اصحاح ٧ رقم ١٥ .

« فطيور السماء لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن والله يطعمها ، وزنابق الحقل لا تتعب ولا تغزل والله يلبسها ، وسليمان في كل مجده لا يلبس كواحدة منهـا » • أفليس الانسان حريا بالتفضيل عليها •

حثه على التسامح المطلق :

واما علاقة الانسان بأخيه ، فان اقرب الناس الى الله من أحبه وأحب خلقه، ولا يستحق الغفران من لم يغفر للمسيئين:

« احبوا اعـداءكم ، باركوا لاعنيكم ، احسنـوا الى مبغضيكم ، صلوا مـن اجـل الذيـن يسيئون اليكـم ويطردونكم » •

و « ان اخطأ اليك اخوك فوبخه ، وان تاب فاغفر له ، وان اخطأ اليك سبعا في اليوم وتاب اليك سبعا فاغفر له » •

علاقة قائمة على التسامح ودعامتها السلبية المطلقة :

« اما انا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الايمن فحول له الآخر ، ومن اراد ان يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء ايضا ، ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين ، من سألك فاعطه ، ومن اراد ان يقترض فلا ترده » •

على الارض السلام وفي القلوب المسرة •

الايمـــان
واثره في النفس والسلوك

الايمان واثره في النفس والسلوك

هناك الكثيرون من الناس لا يرغبون الحديث عن الايمان والكفر ، لانهم لا يرونهما قضية حيوية اولية ـ بل يرونهما قضية جانبية ثانوية ـ ويرون ان لدينا قضايا حياتية مهمة تغني عن الكلام في الايمان بالله والكفر به .

وهل يصح ان نعتبر الايمان بالله ، والكفر بـه قضية جانبية ثانوية تعيش على هامش قضايانا الحياتية .

اننا نعتبر الايمان بالله والكفر به من القضايا المصيرية التي تقرر مصير الفرد ومصير الامة نحو الخير او الشر او الهدى او الضلال .

نحن لا نريـد الايمان بالله هـذا اللون التقليدي او الوراثي او العاطفي الواهي الذي لا يلامس الاحساس ولا يوجه الشعور .

وانما نريـد الايمان بالله العقيدة التي تقوم في كيـان

الانسان وحياته فتجعل ضميره يحاكم ويحاسب ويؤنب ، ويجعل قلبه يحس ويشعر ويتألم ، ويجعل روحه توجه وتنير وتهدي •

قال تعالى :

« وَيَجْعَلْ لكُمْ نوراً تَمْشُونَ بِهِ ويَغْفِرْ لكُمْ ، واللهُ غَفُورٌ رَحيمٌ »[1] .

وقال تعالى :

« اللهُ وَليُّ الذينَ آمَنُوا يُخْرِجُهمْ من الظُّلماتِ إلى النُّورِ ، والذينَ كفَرُوا أوْلِيائهُمُ الطّاغوتُ ، يُخْرِجُونَهُمْ من النُّورِ إلى الظُّلُماتِ »[2] .

والله تبارك وتعالى يتسامح في أية خطيئة الا خطيئة الكفر به والاشراك به ، قال تعالى :

« إنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ »[3] .

---

(١) الحديد ـ ٢٩ .
(٢) البقرة ـ ٢٨٥ .
(٣) النساء ـ آية ١١٧ .

الايمان بالله يمثل الضمانة الوحيدة التي تحفظ للانسان انسانيته وتصون له مثله وقيمه .

والايمان بالله هو الذي ينمي الاخلاق في الانسان ويحمي الحياة من صفة العبث .

والايمان حقيقة تفرضها الفطرة ويركزها الوجدان ويوحي بها الشعور المستقيم .

والانسان الكافر الملحد لا يمكن ان يرتفع عن طبيعة الحيوان فيه ، لانه فقد الايمان الذي هو الينبوع الذي يثير فيه يقظة الضمير وحرارة الوجدان .

المؤمن بالله هو الذي يستطيع ان يبصر فيض الله على هذا الوجود ، والملحد الكافر هو الذي فقد معاني الرحمة والمحبة والتسامح ، والمغفرة .

قال تعالى :

قُولوا آمَنَّا باللهِ وما أُنْزِلَ إِلَيْنا وما أُنْزِلَ إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسْحاقَ ويعْقوبَ والأسْباطِ وما أُوتِيَ موسى وعيسى وما أُوتِيَ النَّبيُّون من رَبِّهم ، لا نُفَرِّقُ بينَ أحدٍ منْهُمْ ، ونحْن له مُسْلمونَ . فإن آمَنوا بِمِثْل ما آمنْتُمْ به فقدِ اهتدَوا ، وإنْ

تَولوْا فإنما همْ في شقَاقٍ ، فسَيكْفيكَهُمُ اللهُ ، وهو السّميعُ العليمُ . صِبْغةَ اللهِ ، ومنْ أحسنُ من اللهِ صِبْغةً ، ونحنُ له عابدونَ . قُلْ أتُحاجُّونَنَا في اللهِ وَهُوَ ربُّنا وربُّكمْ ، ولنا أعْمَالُنَا وَلَكُمْ أعْمَالُكُمْ ، ونحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ »[1] .

الايمان هو الاعتقاد بوجود الله تبارك وتعالى ووحدانيته وتنزيهه .

والايمان هو اتصال قلب هذا الانسان الفاني الصغير بالاصل المطلق الازلي الكبير ، ومن ثم انطلاق الانسان من حدود ذاته الصغيرة الضيقة الى رحاب الكون .

الايمان يوجب التعبد لاله واحد وليس هناك الا معبود يقيم في نفسه المساواة مع جميع العباد فلا يذل لاحد سواه.

الايمان بالربانية الواحدة يحدد الجهة التي يتلقى منها الانسان تصوراته وقيمه وشريعته فينتفي من الحياة الهوى والفوضى ، وتحل محلها الشريعة والقصد والعدالة .

الايمان يوضح الصلة بين الخالق والمخلوق ويودع في القلب نورا وطمأنينة وينفي التردد والخوف والقلق .

---

(١) البقرة ـ آية ١٣٧ ـ ١٣٨ ـ ١٣٩ ـ ١٤٠ .

الايمان يثير في النفس الكرامة وانه كريم على الله فيرفع من اعتباره في نظر نفسه .

ونظافة المشاعر وطهارتها تأتي نتيجة للشعور بكرامة الانسان على الله ثم برقابته تعالى على الضمائر واطلاعه على السرائر .

والايمان السوي الذي لم تمسخه المبادىء الكافرة والملحدة ليستحي ان يطلع انسان مثله على شوائب ضميره وسوء سريرته .

والمؤمن يحس وقع نظر الله في طوايا حسه واسارير نفسه فيرتعش او يهتز ، فينبعث من الايمان العمل الصالح والاخلاق الفاضلة وهما ثروة طبيعية للايمان وفي الحديث المأثور :

« ليس الايمان بالتمني ولكن ما وقد في القلب وصدقه العمل ، وان اقواما قد غرتهم الاماني حتى خرجوا من الدنيا وليس لهم حسنة واحدة : وقالوا : نحن نحسن الظن بالله ، كذبوا لو احسنوا الظن لاحسنوا العمل » .

الايمان يرتفع صاحبه عن التكالب على اعراض الحياة الدنيا وحطامها واختيار ما عند الله وهو خير وابقى وغير المؤمنين بالله هم الذين يتكالبون على الحياة الدنيا .

والمؤمن هو الذي يستمد القوة من الله فيعمل في سبيل الله ويكافح الشر والطغيان لتحقيق العدالة في الارض والخير والسلام والامان .

والايمان هو المحور الذي تربط به الحياة وتدور حوله والا فهي مغلقة .

والايمان هو المنهج الذي يضم شتات الاعمال وردها الى نظام تتناسق معه وتتعاون ، ومن ثم يهدد القرآن كل عمل غير نابع من الإيمان « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً »[1] ، وهو نص صريح على إهدار أعمال الكفار .

الايمان دليل على صحة الفطرة وسلامة التكوين الانساني وتجاوبه مع هذا الكون بما فيه من دلائل على وجود الله تعالى ،والكفر دليل على فساد لا يكون معه الا الخسران.

الايمان يبعث على الاستقامة على منهج الله فلا يكون الخير فلتة عارضة وانما ينبعث عن دوافع وثيقة ويتجه الى هدف .

---

(١) النور ــ آية ٤٠ .

الايمان بالله هو نقطة التحول في حياة البشر من العبودية لشتى القوى والاعتبارات الى عبودية واحدة لله تعالى .

والايمان هو نقطة التحول من الفوضى الى النظام ، ومن التيه الى القصد ، ومن التفكك الى الوحدة ، فهذه البشرية دون الاعتراف بالله الواحد والاعتراف بحاكميته لا تعرف لها قصدا .

الايمان هو رفع المستوى الانساني وتكريم له عن عبوديته لمخلوقات مماثلة له « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا »[1] .

والايمان هو تخليص الانسان من الانحراف ومن عبودية الانسان لشهواته ورغباته الى عبادة الله تعالى .

والايمان الذي لا يردع صاحبه عن معصيته ولا يدفعه الى واجب هو ايمان ميت .

والانسان غير المؤمن هو انسان منحرف بل هو انسان ممسوخ نفسيا ، هو احط من الحيوان لانه انصرف عن الغاية التي خلق من اجلها .

---

(١) الاسراء ــ آية ٧١ .

والله الذي نؤمن به ليس الها محصورا في المحراب بل هو الله في السموات والارض في البر والبحر ، وفي الحقل والمكتب ، وفي المدرسة وفي الشارع وفي الانسان نفسه في كل مكان وفي كل زمان .

الايمان ليس سلبيا ولا انهزاميا ولا متزمتا ولا انطوائيا وانما هو ايجابي أمر معتنقيه ان يواجهوا القضايا وجها لوجه ويحلوا مشاكلهم على طريقة من العلم والخبرة والتجربة وفي ضوء الاسلام

والتوبة التي جعلها الله لعباده وسيلة ايجابية بين الله والعبد ، ليتراجع الانسان عن خطأه ومواصلته لمسيرته الخيرة الى الله تعالى .

واليأس والقنوط سلبية حاربها الاسلام بقوله تعالى : «إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلاَّ القَوْمُ الكافِرونَ»[1] ،

فكما انه لا يجوز ان نقنط ونيأس من رحمة الله لنا اذا تبنا اليه، كذلك لا يصح ان نيأس من عودة اسلامنا الى الحياة وادارة المجتمع من جديد ، وكذلك لا يصح ان نيأس من اصلاح ابنائنا وان نؤدي لهم امانة الاسلام، مهما انحرفوا مع التيارات المنحرفة والجارفة ، وكذلك لا يصح ان نيأس من استرجاع فلسطين وبقية اجزاء ارضنا السليبة في العالم الاسلامي ولو بعد حين .

---

(١) يوسف ـ آية ٨٨ .

والايمان يحرر النفس من عبودية الغير وسيطرته ، وان لا ضار ولا نافع الا الله ، قال تعالى :

« قُلْ لآ أمْلِكُ لِنَفْسي نَفْعاً ولا ضَرّاً إلاَّ ما شاءَ اللهُ »[١] .

قال تعالى :

« الذينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ ، ألا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلوبُ »[٢] .

وقال تعالى :

« هُوَ الذي أنْزَلَ السَّكينَةَ في قلوبِ المؤْمنينَ لِيَزْدادوا إيماناً مَعَ إيمانِهِم »[٣] .

والايمان يرفع من قوى الانسان المعنوية ، ويربطه بمثل أعلى وهو الله مصدر الخير والبر ، والكمال وبهذا يسمو الانسان عن الماديات ويرتفع عن الشهوات ، قال تعالى :

---

(١) الاعراف ـ آية ١٨٩ .

(٢) الرعد ـ آية ٢٩ .

(٣) الفتح ـ آية ٥ .

«إنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ يَهْدِيهِم رَبُّهُم بإيمانِهِم»[1].

وقال تعالى :

«إنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذينَ آمَنُوا إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[2].

والايمان يبعث الامل من اجل الحياة الطيبة يعجل الله بها للمؤمنين في الدنيا قبل الآخرة ، وتتمثل هذه الحياة في ولاية الله للمؤمنين وهدايته لهم ، ونصره لهم على اعدائهم ، قال الله تعالى :

«مَنْ عَمِلَ صَالِحاً من ذَكَرٍ أو أُنثى وَهوَ مؤمِنٌ فلَنُحيِيَنَّهُ حياةً طَيِّبةً ، وَلنَجزِيَنَّهُم أجرَهُمْ بِأحسَنِ مَا كانوا يَعمَلونَ»[3].

وقال الله تعالى :

«إنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذينَ آمَنُوا في الحياةِ

---

(١) يونس ـ آية ١٠ .
(٢) الحج آية ٥٥ .
(٣) النحل ـ آية ٩٧ .

الدُّنيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ »[1] .

فالايمان هو الذي يبعث المؤمن ليبذل مالـه ونفسه في سبيل الله رخيصين والا فهو مكذب بالدين .

فالايمان بالله الواحد مفرق الطريق بين التصور والاعتقاد وكذلك فهو مفرق الطريق في الحياة والسلوك .

والايمان بالله هو مفرق الطريق بين التحرر المطلق من كل عبودية لغير الله تبـارك وتعالى ، والتحرر من عبودية الاوهام وعبودية النظـم وعبودية الاوضـاع والاشخاص والاساطير والخرافات .

واذا كان الله هو الذي يستعان به وحده ، فقد تخلص الضمير البشري من الاستذلال لغير الله .

وما يتشدق بـه البعض ــ مـن شباب وشابات هـذا العصر ــ ممن لا ايمان لهم ، من ان الايمان بالقلب وليس بالصلاة ولا بالصيام ، وان المهم طيبـة الضمير ، فاذا كان الايمان لا يبعث المؤمن على عبادة الله فأي ايمان هـذا يا ترى ؟

---

(١) غافر ــ آية ٥٢ .

ان العمــل الصالح ثمرة الايمان ، وفي مقدمــة العمل الصالح عبادة الله (الصلاة) ، والايمــان الذي لا يبعث صاحبه لعبادة الله ، وامتثال اوامره واجتناب محارمه هو ايمان ناقص ، كالشجر بلا ثمر والرامي بلا وتر والداعي بلا عمل .

ونحن الآن نحتاج الى جيل متماسك من الداخل والخارج يتناسق مع دينه وبيئته لينشأ قوي البنية رصين الفكر ، لا تتجاذبه الاهواء ولا تعصف به الاعاصير ، ولا تميل بــه الريح كيف مالت .

والايمان هو الذي يبعث المؤمن على البذل والتضحية مــن اجل المبدأ والعقيدة ، من اجــل الله والدين والوطن والضعفاء والمحتاجين .

والذين لا يبعثهم ايمانهم على البذل والعطــاء ، هؤلاء ليسوا بمؤمنــين حقيقة وواقعــا ، وهم كاذبون بدعواهم الايمان . قال الله تعالى :

« أَرَأَيْتَ الذي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ . فَذَلِكَ الذي يَدُعُّ اليَتيمَ . وَلا يَحُضُّ على طَعَامِ المِسْكينِ . فَويْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . الذينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهونَ . الذينَ هُمْ يرَآؤنَ . ويمْنَعُون الماعون »[١] .

---

(١) الماعون ــ آية ٢ ــ ٣ ــ ٤ ــ ٥ ــ ٦ ــ ٧ ــ ٨ .

والايمان بوجود الله الواحد ، هو قضية الانسان الاولى في تصوراته وتفكيراته ، ولم يقع خلاف في ذلك ، الا عند اناس ابطلوا عقولهم واماتوا ارواحهم ، ولم يقيموا وزنا لسوى الحس شأنهم شأن الحيوان ، وقد نبتت في هذه الايام نابتة منقطعة عن اصل الحياة ، مرتدة عن الفطرة ، تنكر وجود الله ولا تؤمن الا بما تقع عليه حواسها .

انه مع التوحيد الخالص ، فلا مكان لعبودية الا لله ، ولا مكان للاستعداد والتلقي الا من الله لا في شريعة او نظام ، ولا في ادب او خلق ، ولا في اقتصاد او اجتماع ، ولا مكان كذلك للتوجه لغير الله في شأن من شؤون الحياة وما بعد الحياة .

اما في تلك التصورات الزائفة المنحرفة المهزوزة الغامضة فلا متجه ولا قرار ، ولا حدود لحرام وحلال ، ولا لخطأ او صواب في شرع او نظام ، في ادب او خلق ، وفي معاملة او سلوك ، وانما تتحدد وتتضح عندما تتحد الجهة التي فيها التلقي واليها التوجه ولها الطاعة والعبودية والتسليم والاستسلام .

والايمان بالله في الاسلام قاعدة التصور ، وقاعدة المنهج الذي يحكم الحياة وقاعدة الخلق ، وقاعدة الاقتصاد ، وقاعدة كل حركة يتحركها المؤمن هنا او هناك .

الايمان بالله معناه افراده ، سبحانه ، بالالوهية والربوية والعبادة ، ومن ثم افراده بالسيادة على ضمير الانسان وسلوكه في كل امر من امور الحياة .

ليس هناك شركاء ـ اذن ـ في الالوهية او الربوبية . فلا شريك له في الخلق ولا شريك له في تصريف الامور ولا يتدخل في تصرفه بالكون والحياة احد ، ولا يرزق معه احد ، ولا يضر او ينفع غيره احد ، ولا يتم في هذا الوجود شيء صغيرا كان او كبيرا الا باذن الله به ورضاه .

وليس هناك شركاء في العبادة يتجه اليهم الناس الا الله ، ولا طاعة الا لله ولمن يعمل بأمره وشرعه ، فيتلقى سلطانه من هذا المصدر الذي لا سلطان الا منه ، فالسيادة على ضمائر الناس وعلى سلوكهم لله وحده بحكم هذا الايمان ، ومن ثم فالتشريع وقواعد الخلق ونظم الاجتماع والاقتصاد لا تتلقى الا من صاحب السيادة الواحد الاحد من الله ، فهذا هو معنى الايمان بالله ، ومن ثم ينطلق الانسان حرا ازاء كل من عدا الله عزيزا على كل احد الا سلطان من الله.

ان الذي يمتلىء شعوره بوجود الله الواحد الحي القيوم العالم المدرك السميع البصير ، لا بد يختلف منهج حياته ونظامه من الاساس عن الذي تقيم في حسه تلك التصورات التائهة المهوشة ، فلا تجد في ضميره اثرا لحقيقة الالوهية

الفاعلة المتصرفة في حياته .

فالايمان بالوحدانية الناصعة ينشأ عنه الاتجاه الى الله وحده بالعبودية والعبادة ، فلا يكون الانسان عبدا الا لله ، ولا يتجه بالعبادة الا لله ، ولا يلتزم بطاعة الا بطاعة الله .

وعن هذا التصور تنشأ قاعدة الحاكمية لله وحده فيكون الله وحده هو المشرع للعبـاد ، وتستمد البشر تشريعاتها مـن الله .

وعن هذا التصور تنشأ قاعدة استمرار القيم كلها مـن الله ، فلا اعتبار لقيمة من قيم الحياة اذا لم تقبل في ميزان الله ولا شرعية لوضع او تقليد او تنظيم يخالف منهج الله .

قيمة الايمان انه معرفة بالحقيقة الاولى (الله) التي لا تقوم في النفس البشرية معرفة صحيحة لشيء في هذا الوجود الا عن طريقها ، فعن طريق الايمان بالله ينشأ ادراك لحقيقة هذا الوجود ظاهره وخافيه ، وانه من صنع الله وبعد ادراك هذه الحقيقة يستطيع الانسان ان يتعامل مع الكون وهو يعرف طبيعته كما يعرف قوانينه التي تحكمه ومن ثم ينسق حركته مع حركة هذا الوجود الكبـير ، ولا ينحرف عـن النواميس الكلية .

وقيمة الايمان الطمأنينة النفسية والثقة بالطريق وعـدم

الحيرة او التردد او الخوف او اليأس ، وهذه الصفة لازمة لكل انسان في رحلته على هذا الكوكب وهي ألزم ما تكون للقـــادة .

وقيمة الايمان التجرد مـــن الهوى والغرض والصـــالح الشخصي وتحقيق المغانم ، اذ يصبح القلب متعلقا بهدف ابعد من ذاته ، ويحس ان ليس له من الاثر شيء ، انما هي دعوة الله وهو فيها اجير عند الله ، وهذا الشعور ألزم مـــا يكون لمن توكل اليه مهمة القيادة كي لا يقنط اذا اعرض عنه القطيع الشاذ ، ولا يغتر اذا ما استجاب له الناس .

والايمان بالله سبحانه هو الايمان بالغيب ، فذات الله سبحانه غيب بالقياس الى البشر ، فاذا آمنوا بـــه ، فانما يؤمنون بغيب يجدون آثار فعله ، ولا يدركون ذاته ولا كيفيات افعاله .

فالايمان بالغيب هو ترفع عن حواجز الحس دون الاتصال بين ارواحهم وخالقهم ، وخالق الوجود ، ولا تقوم حواجز الحس بين ارواحهم وسائر ما وراء الحس من حقائق وقوى وطاقات ومخلوقات وموجودات .

والايمـــان بالغيب هو العتبـــة التي يجتازهـــا الانسان فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك الا ما تدركه حواسه

الى مرتبة الانسان الذي يـدرك ان الوجود اكبر واشمل من ذلك الحيز الصغير الذي تدركه حواسه .

لقد كان الايمان بالغيب هو مفرق الطريـق في ارتقـاء الانسان من عـالم البهيمة ، ولكن جماعة الماديين في هذا الزمان كجماعة الماديين في كل زمـان يريدون ان يعودوا بالانسان القهقرى الى عالم البهيمة الذي لا وجود فيه لغير المحسوس ويسمون هذه (تقدمية) وهو النكسة التي وقى الله المؤمنين اياها ، فجعـل صفتهم المميزة صفـة (الذين يؤمنون بالغيب) والحمد لله على نعمائه .

قال : « آلم ، ذلكَ الكتَابُ لا ريْبَ فيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ، الذينَ يُؤْمنونَ بالغيْبِ ويُقيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهمْ ، يُنْفقُونَ والذينَ يُؤْمنون بما أُنْزِلَ إليْكَ وَما أُنْزِلَ من قَبْلكَ وبالآخرةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أولئكَ على هُدىً من رَبِّهمْ وَأولئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ »[1] .

وقال تعالى :

« آمَنَ الرَّسولُ بِمَا أُنْزِلَ إلَيهِ مِنْ رَبِّهِ ،

(١) البقرة ــ آية ١ ــ ٦ .

والمُؤمِنونَ كلٌّ آمَنَ باللهِ وملائكتهِ وكُتُبهِ ورُسُلهِ، لا نُفرِّقُ بينَ أحدٍ مِنْ رُسلِهِ، وَقالوا سَمِعْنا وأطعْنا غفرانَكَ رَبَّنا وإليكَ المصيرُ»[1]

لقد تم تأليف هذا الكتاب
وكنت ألقيته بشكل محاضرات
على قسم من الجماهير في
المناسبات الاجتماعية
والندوات

والله سبحانه ولي القبول والتوفيق وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

بيروت ١٣٩٧/٦/٢٩
١٩٧٧/٦/١٦

احمد زكي تفاحة

---

(٢) البقرة ــ آية ٢٨٤ ــ ٢٨٦ .

الفهرست

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

كتب للمؤلف مطبوعة

* اصل العلويين وعقيدتهم ـ نفـد
* اصول الدين وفروعه عند الشيعة الامامية
طبعة ثالثة ـ نفـد
* الايمان والعقـل ـ نفـد
* التطـور والدين
* الاسلام والحكم تحت الطبع

كتب للمؤلف معدة للطبع

* الاسلام عقيـدة وشريعة
* من هم الشيعـة ؟
* فلسفة التشريـع الاسلامي
الجـانب العبادي
* نماذج تربوية من القرآن الكريم
* المـراة والاسلام
* المـادة والروح
ونظريـة التنـاسخ
* مصادر التشريـع الاسلامي
* الاسـلام والعـلم